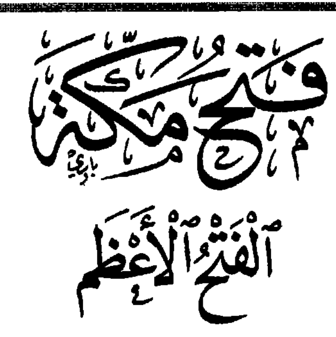
سلسلة

غزوات الرسول الأعظم

صلى الله عليه وسلم

الدكتور شوقي أبو خليل



فتح مكة

الفتح الأعظم




دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٣١, ٠٦٣٠
الرقم الدولي للسلسة: ISBN: 1-57547-102-7
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-109-4
الرقم الموضوعي: ٢٧٠
الموضوع: السيرة النبوية
السلسلة: غزوات الرسول الأعظم
العنوان: فتح مكة (الفتح الأعظم)
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٦٨ ص
قياس الصفحة: ١٤× ٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م
ط١: ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



فتح مكـة : الفتـح الأعظم / شـوقي أبـو خليـل. ـ دمشـق : دار الفكر ، ١٩٩٦. ـ ١٦٨ ص : ؛ ٢٠ سم.
١ ـــ ٩٥٦,٠٢ خ ل ي ف ٢ ـ ٢١٩,٦ خ ل ي ف
٣ ـــ العنوان ٤ ـ أبو خليل
مكتبة الأسد
ع ـــ ٧١٤ / ٦ / ١٩٩٦

مَا بَدَأَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حرباً قطّ ،
إذ كان حريصاً ألا يُراق دم إنساني
فهو نبيُّ المرحمة .
ولكن إذا كانت لامحالة واقعة كان رَجُلَها
الأول . . فهو نبيُّ الملحمة .
لقد كان عظيماً في رحمته بالناس ،
عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في
خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثماره .



تصدير

* رسول الله ﷺ : « يامعشر قريش ، ويا أهل مكة ، ماترون أنّي فاعلٌ بكم ؟ » ، قالوا : خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء » .

بسم الله ، والصلاة والسَّلام على رسول الله ، وبعد ..

عاد جيش الأُمراء من مُؤْتة ، بعد استشهاد ثلاثة من كبار الصحابة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أَبي طالب ، وعبد الله بن رواحة . وأدرك رسول الله ﷺ أن انسحاب هذا الجيش تحت قيادة خالد بن الوليد ، أمام عدوٍّ فاقه عَدَداً وعُدَّة ، لا يقل قيمة في نظر القائد البصير الخبير ، عن دحره في ميدان القتال .

وظنَّت قريش وحلفاؤها من القبائل ، أن قدرة المسلمين العسكرية التي اكتسبوها بعد الخندق ، وهيبتهم التي حقَّقوها بعد خيبر

قد انهارتا بعد مُؤْتَة ، فما الذي يمنع أن تعود الأُمور إلى ما كانت عليه قبل الحديبية ؟! ومن يقف دون ذلك ، وها هي قدرة المسلمين العسكرية القتالية تفشل - برأيهم - بعد مُؤْتَة ؟! ومن يقف في طريقها ، وها هي هيبتهم تهتزُّ على حدود جزيرة العرب الشماليَّة الغربيَّة ؟!

فإلى حرب جديدة دون خشية قصاص رادع ، لقد خُيِّل للفرسان الشباب من قريش ، أن فرصة جديدة سنحت لاستئصال رسول الله ﷺ والمسلمين ، فحرَّضوا حلفاءهم من بني بكر ليصيبوا ثأراً قديماً من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، وأَمدُّوهم بالسِّلاح والرِّجال .

لقد خرقوا بنود الحديبية ، لكنهم لم يقدِّروا الموقف تقديراً سليماً ، وظنوا أَنَّ كل شيء ممكن بعد مُؤْتَة .

لم ينظروا إلى الأَمر نظرة صحيحة ، معتقدين أن الفرصة حانت لإنهاء قيود الصلح ، الذي جاءت ثماره يانعة للمسلمين . فخرقت قريش بنود صلح الحديبية ، وانتهكت أهم بند فيه : « وضع الحرب عن الناس عشر سنين تأمن فيه الناس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض » .

ولكن بعض قادة قريش الأكثر خبرة واتِّزاناً ، أدركوا أن مُؤْتَة لم تُغَيِّر الموقف مطلقاً ، فقوة المسلمين لم تنقص خلال عامين من عمر الحديبية ، بل ازدادت ، بمن انضم إليهم من مسلمين جُدُد ، ومعنويات

المسلمين ارتفعت ولم تنخفض ، وسلطانهم في الجزيرة العربيّة ازداد بأساً وقوة بعد انتصارهم في خيبر ، وامتد انتشار الإسلام حتى حدود العراق والشام .

لما سبق ، سار زعيم قريش أبو سفيان بن حرب ، وملكها غير المتوّج ، إلى المدينة المنوّرة ، علّه يصلح ما أفسده قومه ، فعاد فاشلاً خائباً .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يحشد أعظم جيش عرفته جزيرة العرب ، ليتحرّك وهو في أرقى مستوى من التعبئة والسّلاح والطاعة ، يقوده رسول الإنسانية - ﷺ - وقد جعل نصب عينيه فتح مكة المكرّمة بأقل دماء وخسائر ممكنة .

فليس المهم قتل القرشيين الوثنيين المشركين ، المهم دخول الناس في دين الله أفواجاً .

ما أراد - ﷺ - إذلال قريش ، ولا أراد سلاماً معها . فالسّلام حالة هدنة بين عدوّيْن . لقد أراد ﷺ ما هو أسمى وأرقى ، أراد إخاءً وأُلفةً ومحبّة ، ووحدة عقيدة .

وبعد تمام الفتح ، وتحطيم الأصنام ، وقفت قريش مذهولة لترى مصيرها ، فكان الموقف الفريد على مرّ التاريخ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

« **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » لِمَنْ ؟

لمن أخرجه ﷺ من مكة .

لمن حاصره في شِعْبٍ من شعاب مكة حتى أكل المسلمون الأُوَل ورق الشجر .

لمن ذهب إلى الحبشة لإرجاع المهاجرين ، ليتابع تعذيبهم .

لمن قال ـ كما أخبرنا سبحانه وتعالى ـ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾[1] ، ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾[2] ، ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾[3] ، ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[4] .

« **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » لمن قال شاعر وساحر وكذاب ..

لمن صادر أملاك المسلمين وباعها .

لمن جمع قواته وسار إلى أُحُد ، وقتل الحمزة وشوَّه جُثَّتَه .

لمن حشد القبائل في غزوة الخندق ليستأصل المسلمين وينهي وجودهم .

---

(١) سورة الطور : ٣٠/٥٢ .

(٢) سورة الصَّافات : ٣٦/٣٧ .

(٣) سورة الأنبياء : ٥/٢١ .

(٤) سورة ص : ٤/٣٨ .

غاية الأخذ ومنتهاه ، يقابله غاية العطاء ومنتهاه .
غاية الإيذاء ومنتهاه ، يقابله غاية الصفح ومنتهاه .
غاية الاضطهاد ومنتهاه ، يقابله غاية العفو ومنتهاه .
غاية الصدّ ومنتهاه ، يقابله غاية القبول ومنتهاه .
غاية الطيش ومنتهاه ، يقابله غاية الحلم ومنتهاه .

فأي خلق تحلّى بـه رسول الله ﷺ ، وأي درس في العفو والأُخوة والمحبّة لقّنـه لقريش ؟! ومن ثَمّ ، وبعـد « هوازن والطـائف » الغنـائم لأعداء الأَمس ، لاستكمال الفتح الروحي لقلوبهم . ولامتلاك أرواحهم ونفوسهم ، فلقد جُبِلَت القلوبُ على حُبٍّ من أَحسن إليها .

وإن قـال قـائل : إن مـوقف رسـول الله ﷺ من أهـل مكّـة هـو مـوقف القريب من القريب ، والرَّحم من الرَّحم ، وابن العشيرة من عشيرته .. نردُّ قوله نصّاً وروحاً ، لما يلي :

أ ـ إن احتمال وقوع الحرب كان قـائمـاً مئـة بـالمئـة ، « من دخـل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليـه بابه فهو آمن .. » إذن هناك من ليس آمنـاً إن لم يـدخل المسجـد أو دار أبي سفيان أو لم يغلق عليه بابه . وهذا ما جرى في « الخَنْدمَة » ـ كما سيمر تفصيله ـ ، لذلك هيّأ رسول الله ﷺ خُطّة حربية كاملة لدخول مكـة من جميع جهاتها ، لاحتمال المقاومة والحرب .

٢ - وخروج المهاجرين في جيش رسول الله ﷺ ، احتمال لقتال الأقرباء والأبناء والآباء بمكة ، بدليل التهيُّؤ للحرب بلباسه الكامل ، وعُدَّته المطلوبة ، وخطته الكاملة المدروسة .

٣ - قول رسول الله ﷺ لأُمراء الكتائب التي دخلت مكَّة : « من قاتلكم فقاتلوه » .

٤ - وإذا كانت القرابة تمنع ، فلماذا لم تمنع العرب بعضهم عن بعضٍ أيام الجاهلية ؟

لماذا لم تمنع أوْساً عن خزرج ؟
ولم تمنع بني عامر عن بني الحارث بن كعب ؟
ولم تمنع حرب البسوس بين بكر وتغلب بن وائل ؟
ولم تمنع ربيعة عن تميم ؟
ولم تمنع عَبْساً عن ذُبْيَان في حرب داحس والغبراء ؟
ولم تمنع قَيْساً عن كنانة في حرب الفُجَّار[1] ..؟
ولم تمنع - أخيراً - بني بكر عن خزاعة ؟

٥ - ولماذا لم تمنع القرابةُ في بدر وأُحد والخندق أن يطلب المسلم أخاه أو أباه أو ابنه لقتله - والعكس صحيح - ؟ لأن الإسلام رفض

---

(١) لن نذكر في هذه المقدّمة كل أيام العرب في الجاهلية ، والحروب التي دارت بينهم ، لهذه النقطة ، راجع : « أيام العرب في الجاهلية » لمحمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربيّة ، طبعة البابي الحلبي بمصر .

رابطة الدم أصلاً منذ بدء دعوته ، قال عز وجل بحقّ عم النبي ﷺ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾(١) ، وجعل رسول الله ﷺ : « سلمان منا آل البيت » ، لما وقر في قلبه من إيمان وإخلاص ومحبّة لله ولرسوله .

٦ ـ وحتى الذين أهدر رسول الله ﷺ دماءهم ، لأسباب منطقية سنأتي عليها ، لما جاؤوه مسلمين . عفا عنهم وقبل إسلامهم .

٧ ـ الأمر أمر عقيدة ، فإذا حييت النفوس بالله عز وجل ، وقُتِل الكفر وانتهت الوثنية ، وحُطِّمت الأصنام ، وعُبِدَ الله الواحد قيوم السموات والأرض ، فهذا هو الهدف الأول والأخير ، حتى القرابة في أمور العقيدة زالت مع قول رسول الله ﷺ لأُسامة بن زيد بن حارثة عندما جاء يَشْفَع لامرأة سرقت ـ بعد فتح مكة مباشرة ـ : « والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

٨ ـ وإن قيل إن هولاكو دمَّر بغداد وقتل مئات الأُلوف ، ودمَّر الرومان قرطاجة وأحرقوها بمن فيها .. هؤلاء لاقرابة بينهم ، بينما هنا في فتح مكة قرابة الدم فرضت هذا الموقف ، نقول : إن التاريخ حافل بشواهد كثيرة ، فعل فيها الأقرباء بعضهم ببعض أكثر مما فعل هولاكو

---

(١) سورة المسد وهي مكية وآياتها خمس . [١١١] .

والرومان ، انظر إلى الممالك اليونانية ماذا فعل بعضها ببعض في القرن الخامس الميلادي ، على الرغم من أن عقيدتهم واحدة ، والأُلمبياد يجمعهم سنوياً ، ومع ذلك حبُّ الزعامة والسيطرة والثروة دمَّرت مدنهم متجاوزين لا القرابة فحسب ، بل حتى العقيدة ذاتها . ولاننسى ماحدث في عالمنا - وفي أوربة خاصة - من حروب أهلية أتلفت الأخضر واليابس .

☆ ☆ ☆

وبعد الفتح جعل رسول الله ﷺ - المهاجر الفاتح - للعروبة معناها ، بثَّ فيها روحاً ، فالعروبة اسم القوم ، ولا يفيد الاسم بلا مضمون وعقيدة ، مافائدة اسم عليم لأُمّي ؟ أوسريع لمقعد ؟ أوقوي لضعيف ؟ أوصحيح لمريض ؟ أوشريف لوضيع ؟ أو بصير لأعمى ؟

ماألغى - ﷺ - عروبتهم ، بل جعل لسانها لغة مقدَّسة في كل بلدان المسلمين - على اختلاف قومياتهم - حتى قيام السَّاعة . ولم يقل لهم مطلقاً : أنتم لستم عرباً . وماقال لهم : أنتم غجر ، أوسكسون ، أو رومان .. ولكنه جعل لهم عقيدة سليمة ، ونهجاً قويماً ، وفكراً صحيحاً ، ومبدأ حكيماً .. وبهذا الذي قدَّمه ﷺ « للطُّلَقَاء » ، جعل من صعاليكهم ملوكاً ، ومن فقرائهم أغنياء ، ومن فُرْقَتِهم وعشائريتهم

وحدة وجسداً واحداً ، وجعل لهم حضارة عربيـة إسلاميـة تتغنّى الأُمم بأعلامها ، وتُقرّ بفضلها حضارة القرن العشرين .

☆ ☆ ☆

فتح مكة في العشرين من رمضان سنة ثمانٍ للهجرة ، يعني انتقـال العرب من القبائلية والعشائرية إلى الأُمة الواحدة المُحَرَّرة المُحَرِّرة .

ومن الجـاهليَّـة والوثنيَّـة والأصنـام ، إلى التوحيـد المطلق لله عـز وجل وحده .

ومن التَّمزُّق والتَّفرُّق ، إلى الأُلفة والتعاون والوئام .

ومن الجفاء والحمق ، إلى المحبة والحكمة .

ومن العُزْلة والتَّبَعِيَّة ، إلى الإنسانية المسؤولة ، مع الرفعة والمجد .

ومن الخرافـات والمعـارف البسيطـة المحـدودة ، إلى العلم والبحث والحضارة العالمية .

ومن الفوضى والعشوائيَّة إلى النظام والهدف الأسمى المحدَّد .

ومن حجاز ونجد وعسير ، إلى إفريقية وأندلس وصين .

ولـو بقي العرب مـع الـلات والعُـزَّىٰ ، وهُبَـل ومنـاة الثـالثـة الأُخرى ، لما فتحوا قرية ، حتى ولا مغارة .

صلى الله عليـك أيهـا الرسـول العظيم ، لقــد كنت عظيمـاً في كل شيء ، لقـد كنت عظيمـاً في صبرك على قومـك ، ومـع أن الصبر يحمـل

معنى اسمه ، مُرٌّ مذاقه ، ولكن نتائجه أطيب وأحلى من الشَّهد ، ولقد كان الصبر مَلَكَةً وخُلُقاً ثابتاً في حياتُك ، أثمر الحياة الكريمة لأُمتك ، وكنت عظيماً في حروبك ، وفي استعداداتها واستثمار نصرها ، وكنت عظيماً في عفوك ، فحققت فتح أبواب القلوب المقفلة ، وهدَّمت حصون جفائها وكفرها ، وغنمت الأرواح حبيبة قريبة ، تموت دونك ، وتستشهد في سبيل الله .

فإلى أحداث فتح مكة ـ زادها الله شرفاً ورفعة ـ :

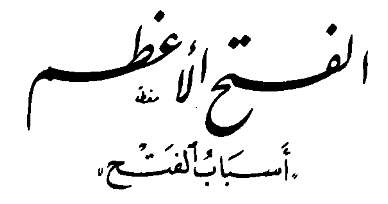
أحداثاً تاريخية ، مع الحفاظ على أمانة نقل النص وإرجاعه إلى مصادره بدقة .

وتحليلاً وتعليقاً مناسباً إن شاء الله ، فهو الموفق ، والملهم ، إنه من وراء القصد .

☆ ☆ ☆

دمشق في : ٢٢ / ٣ /١٤٠٣ هـ
الموافق : ٦ / ١ / ١٩٨٣ م

شوقي أبو خليل
دمشق ـ سورية
ص . ب ٦٢٢٢
Shawki@ Fikr.com



الفتح الأعظم

«أسباب الفتح»

*« نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم ، لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب ، مما أنصُرُ به نفسي وأهل بيتي ، ولأمنعنهم مما أمنع منه نفسي ، خزاعة مني وأنا منهم ، إن هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب » .

رسول الله ﷺ

كان من بنود صلح الحديبية أنَّه من شاء أن يدخل في عَقْد رسول الله ﷺ وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، فقالت قبيلة خزاعة : نحن ندخل في عقد محمد وعهده ، « خزاعة في عقده - ﷺ - المؤمن والكافر »[1] ، وقالت قبيلة بني بكر : نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم .

وهذا الاختيار من قبل خزاعة وبني بكر له أسبابه التاريخية :

---

(١) ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤١ .

خزاعة حلفاء عبد المطلب في الجاهليّة :

كانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله ﷺ يناصرونه على عَمِّه نوفل بن عبد مناف في الجاهلية ، وسجَّلوا ذلك في كتاب قرأه أُبَيٌّ بن كعب يوم الحديبية ، ونَصُّه : « باسمك اللّهم ، هذا حلف عبد المطب بن هاشم لخزاعة ، إذ قدم عليه سرواتهم[1] وأهل الرأي منهم ، غائبهم يُقرُّ بما قاضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهود الله وميثاقه ، ومالا ينسى أبداً ، اليد الواحدة ، والنصر واحد ، ما أشرق ثَبِير[2] وثبت حراء ، وما بَلَّ بَحْرٌ صوفَة » .

وفي رواية : « باسمك اللّهم ، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة ، تحالفوا على التناصر والمواساة ، ما بَلَّ بحر صوفة ، حلفاً جامعاً غير مفرق الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عهد لا ينقض ولا ينكث ، ما أشرقت شمس على ثَبِير وحنَّ بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان[3] ، وعمر بمكة

(١) السَّرْوُ : المروءة والشرف ، سرواتهم : أشرافهم ، لسان العرب ، جـ ١٤ ص ٣٧٧ .

(٢) ثَبِير : جبل مكة ، يقال : أَشْرِقْ ثَبِير كيما نُغِير ، وهي أربعة أَثْبِرَةٍ : ثَبِير غيناء ، وثَبِير الأعرج ، وثَبِير الأحدب ، وثَبِير حِرَاء . لسان العرب : جـ ٤ ص ١٠١ .

(٣) الأَخْشَبان : الجبلان المطيفان بمكَّة ، وهما : أبو قُبَيس والأحمر ، وهو جبل مشرف وجهه على قُعَيْقِعان ، لسان العرب : جـ ١ ص ٣٥٤ .

إنسـان ، حلف أبـداً لطول أمـد ، يزيـده طلوع الشمس شَـدّاً ، وظلام الليـل مَـدّاً ، وإن عبـد المطلب وولـده ومن معهم ، ورجـال خـزاعـة متكافئـون متظـاهرون متعـاونـون ، فعلى عبـد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعـة النصر لعبـد المطلب وولـده ، ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهـل ، وجعلـوا الله على ذلك كفيلاً »[1] .

ورفض الإسلام كل حلف كان في الجاهلية هـدفـه الغـارات والفتن والقتـال للسَّلب والنَّهب ، وأقرَّ مـا كان على نُصْرَةِ المظلـوم ، وصلـة الرحم ، والخير ، ونصرة الحق .

وهذا ما يفسر لنا انضمام خزاعـة ـ المؤمن والكافر ـ إلى عقـد رسول الله ﷺ وعهـده . ومن الطبيعي أن يَقِفَ بنـو بكر في حلف وعقـد الطرف الثاني ، في عهد قريش .

بنو بكر تصيب ثأراً من خُزَاعَة :

ذكر ابن إسحاق : خرج مالك بن عبَّاد من بني الحضرمي حلفـاء الأَسود بن رِزْن تاجراً ، فلما توسَّط أرض خزاعـة ، عَـدَوْا عليـه فقتلوه « في الجاهليـة قبيل الإسلام » ، وأخـذوا مـالـه ، فَعَـدَت بنو بكر على

(١) السيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ٨٢ السيرة النبويّة والآثار المحمديّة ، جـ ٢ ص ٢٨٦ .

رجل من بني خزاعة فقتلوه ، فَعَدَت خزاعة على بني الأسود بن رِزْن الدِّيلي ، وهم مفخر بين كنانة وأشرافهم ، سلمى وكلثوم وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحَرَم .

فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك ، إذ حجز بينهم الإسلام ، فلما كان يوم الحديبية ، ودخل بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ ، وكانت الهدنة ، اغتنمها بنو الدِّيل من بني بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأراً ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلي مع قومه ، ووثبوا على خزاعة ليلاً عند ماءٍ يقال له الوَتِير[1] ، وهو قريب من مكة . وقالت قريش : ما يعلم بنا محمد ، وهذا الليل ، وما يرانا من أحد ، فأعان صفوان بن أُميَّة ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، وعكرمة بن أبي جهل بني بكر بالرجال والسِّلاح ، وقاتلوا معهم ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً ، حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك ، إلهك ! فقال نوفل بن معاوية الدِّيلي : لا إله اليوم يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتَسْرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم[2] ؟!

---

(١) الوَتِير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة ، (والوتيرة : الوردة الصغيرة) ، معجم البلدان ، جـ ٥ ص ٣٦٠ .

(٢) لأسباب فتح مكة راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٧/ب ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٢٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٧٨ . ابن خلدون : جـ ٢ ص٤١ ، الطبري : =

ولجأت خزاعة إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعي بمكة ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع ، وقد قال الأَخْزَر بن لُعْط الدّيلي في ذلك :

ألا هل أَتى قُصْوَى الأحابيش أننا | رَدَدْنا بني كعب بأَفْوَقَ ناصِل[1]
حَبَسْنَاهُمُ في دارةِ العَبْدِ رافعٍ | وعندَ بُدَيل مَحْبساً غير طائِلِ
بدار الذَّليل الآخذِ الضَّيم بعدَما | شَفينا النفوسَ منهُمُ بالمناصل[2]
حبسناهُمُ حتى إذا طال يومُهُم | نَفَحْنا لهم من كل شِعْبٍ بوابلِ[3]
نذبِّحهم ذبحَ التُّيوس كأَنَّنا | أُسُودٌ نُبَارى فِيهُمُ بالقَواصلِ[4]
هُمُ ظلمونا واعتدوا في مَسِيرهم | وكانوا لَدَى الأَنصاب أَوَّلَ قاتلِ
كأَنهمُ بالجَزْعِ إذ يَطردونَهمْ | قفا ثَوْر حُفَّانُ النعامِ الجَافلِ[5]

« نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم » :

وبعد هذا الخرق الواضح لبنود صلح الحديبية ، ركب عمرو بن

= جـ ٣ ص ٤٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٣ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦١ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٤ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨١ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٢ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٨٦ .

(١) الأفوق : السَّهم ، والناصل : ماله نصل وهو حد السهم ، وحد حديدة السيف مالم يكن بها مقبض ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٦٦٢ .

(٢) الضيم : الظلم ، وضامه حقَّه ضيماً : نقصه إياه ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٣٥٨ .

(٣) الشِعب : المطمئن بين جبلين ، والوابل : المطر الشديد .

(٤) القواصل : السُّيوف القواطع .

(٥) ثور : جبل بمكة ، وقفاه : وراءه ، والحفَّان : صغار النعام : والجوافل : الهاربة المسرعة .

سالم الخزاعي ، في أربعين راكباً من خزاعة ، وقد رأوا غدر بني بكر ، ورأوا إمداد قريش لبني بكر بالرجال والسلاح . وأراد عمرو ومن معه إعلام رسول الله ﷺ بما جرى .

تقول ميمونة زوج رسول الله ﷺ : قام ﷺ ليتوضأ للصلاة ، فسمعته يقول : « لبيك لبيك لبيك ثلاثاً ، نُصِرتَ نصرت نصرت ثلاثاً » . فلما خرج قلت : يا رسول الله سمعتك تقول : « لبيك لبيك لبيك ، نصرت نصرت نصرت » ، كأنَّك تكلِّم إنساناً ، فهل كان معك أحد ؟ قال ﷺ : « هذا راجز بني كعب - يعني خزاعة[1] - يزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر بن وائل » .

قالت ميمونة رضي الله عنها : فأقمنا ثلاثاً ، وعند صلاة الصبح سمعت الراجز يقول : يا ربِّ إني ناشد محمداً ..

وقال ﷺ لعائشة صبيحة الواقعة : « لقد حدث في خزاعة حدث » ، قالت : يا رسول الله أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ينقضون العهد لأمر يريده الله » ، فقالت عائشة : لخير أو لشر ؟ قال ﷺ : « لخير » .

وهذه من دلائل النبوَّة ، فقد أطلع الله سبحانه نَبِيَّه على ذلك يوم

---

(١) بنو كعب بطن من خزاعة ، كما أن بني الدِّيل بطن من بني بكر ، ومن بني الدِّيل نفاثة .

وقوعه ، وأعلمه الوحي ما تصوَّره الراجز في نفسه ، أو أن الراجز كان يرتجز ، وأسْمَعَ الله نبيَّهُ ﷺ كلامه[1] .

ووصل عمرو بن سالم الخزاعي المدينَةَ المنوَّرة ، وأخبر رسولَ الله ﷺ ، وقال :

يا ربِّ[2] إنِّي ناشدٌ مُحَمَّداً ... حِلْف أبينا وأبيه الأتلدا[3]
قد كنتمُ وُلْداً وكنا والداً[4] ... ثُمَّتَ أَسلَمْنا فلم نَنْزِع يَدَا
فانصر رسول الله نصراً أبدا[5] ... وادعُ عِبَادَ اللهِ يأتوا مَدَدا
فيهم رسولُ الله قد تجرَّدا[6] ... إن سِيمَ خَسْفاً وجهُهُ تربَّدا[7]
في فَيْلقٍ كالبحرِ يجري مُزْبِدا ... إنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الموعِدا

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٣ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) في الطبري : جـ ٣ ص ٤٥ : لاهُمَّ .

(٣) الأتلدا : القديم ، إنه يذكر بحلف خزاعة وعبد المطلب بن هاشم جد رسول الله ﷺ .

(٤) في الطبري : جـ ٣ ص ٤٥ : « فوالداً كنا وكنت وَلَدا » ، يعني أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة ، وكذلك قصي أُمُّه فاطمة بنت سعد الخزاعية .

(٥) في الطبري : جـ ٣ ص ٤٥ : أعتدا ، أي : حاضراً ، وكذلك في الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٦) تجرَّدا : شَمَّر وتهيَّأ .

(٧) سيم خَسْفاً : سامه الأمر سَوْماً : كلَّفه إياه ، والسَّوْمُ : أن تُجشِّمَ إنساناً مشقَّة أو سوءاً أو ظلماً ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٣١١ ، وخسف الشيءَ يخسفهُ خَسْفاً : خَرَقَهُ : والخسف : النقصان والهوان ، لسان العرب ، جـ ٧ ص ٦٨ ، وارْبَدَّ وتَرَبَّدَ : احمَرَّ حمرة فيها سواد عند الغضب ، لسان العرب : جـ ٣ ص ١٧ .

وَنَقَضُوا ميثاقَكَ المؤكَّدا   وجعلوا لي في كَدَاءٍ[1] رَصَدا
وَزَعَموا أن لستُ أدعو أحدا   فهمْ أذَلٌّ وَأقَلُّ عَدَدا
هم بيَّتونا بالوَتِير هُجَّدا   وقَتَلونا رُكَّعاً وسُجَّدا[2]

فقال رسول الله ﷺ : « نُصِرتَ يا عمرو بن سالم » ، ودمعت عينا رسول الله ﷺ وقال : « لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب - يعني خزاعة - مما أنصر به نفسي وأهل بيتي ، ولأمنعنهم مما أمنع منه نفسي ، خزاعة مني وأنا منهم » ، فما برح حتى مرَّت سحابة ، فقال ﷺ : « إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب »[3] .

وقدم إلى المدينة أيضاً بُدَيل بن ورقاء الخزاعي - وكان مشركاً - على رأس كوكبة من خزاعة ، وأخبر رسولَ الله ﷺ بما أُصيب منهم ، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم . فقال لهم ﷺ : « ارجعوا فتفرَّقوا في الأودية » ، ليخفي ﷺ مجيئهم إليه ، وأمر ﷺ الناسَ بالجهاز ،

---

(١) كَدَاء : اسم موضع بأسفل مكة من ذي طوى .
(٢) الأبيات في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٧/ب ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٢٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٤٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٧٨ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ ص ١٦٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٦ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨٣ ، معجم البلدان : جـ ٥ ص ٣٦٠ .
(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٣٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ، ص ٢٧ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨٣ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٩٠ .

وكتمهم جهة خروجه وقصده ، وسأل الله أن يعمّي على قريش خبره . حتى يبغتهم ويفاجئهم في بلادهم .

وفي القانون الدولي العام : « ومفاجأة العدو بالهجوم ليلاً ، أو في أنواء صعبة ، أو في مواقع لا يتوقَّع الهجوم منها ، من الخدع الحربيَّة المشروعة في قانون الحرب الدولي العام » ، « ومشروع أيضاً التخفّي والاستتار عن أنظار العدو ، وأخذه على حين غرة »[1] .

أبو سفيان بن حرب أدرىٰ بما جرىٰ :

وجاء الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان بن أُميَّة ومن كان معه ، فلاموهم على ما صنعوا ، وقالا : إن بينكم وبين محمد مدَّة وهذا نقض لها .

وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان ، وأخبره بما فعل القوم ، فقال أبو سفيان : هذا أمر لم أشهده ، ولم أغب عنه ، وإنه لشر والله ، ليغزونا محمد . فقال أحدهم : لا يغزوكم حتى يخبركم في خصال كلها أهون من غزوه ، يرسل إليكم أن أدُّوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً ، أو تبرَّؤوا من حلف بني بكر ، أو ننبذ إليكم على سواء ، فقال سهيل بن عمرو : نبرأ من حلفهم أسهل ، وقال شيبة بن عثمان : ندي القتلى أهون .

---

(١) الحرب في القانون الدولي العام ، ص ١١٣ و ١١٤ .

ورأت هند بنت عتبة ـ زوج أبي سفيان ـ رؤيا كرهتها ، رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة ، فكره القوم ذلك ، وقالوا لأبي سفيان : مالها سواك ، اخرج إلى محمد فكلّمه في تجديد العهد وزيادة المدَّة .

والملاحظ أن مدة الهدنة لم تنقضِ بعد ، ولم يقترب أجلها ، لقد وُقِّعت في ذي العقدة ٦ هـ ، واعتداء بني بكر وقريش على خزاعة كان أواخر شعبان من سنة ٨ هـ ، لقد انقضى حوالي عشرين شهراً[١] عليها فقط ، ومدتها كما مرَّ في صلح الحديبية عشر سنوات .

فالصلح واقع ، وبنوده نافذة ، فلماذا إذن إرسال أبي سفيان بن حرب لتمديد الصلح ؟ إنه أدرى بما فعله قومه ، لقد خرقوا صلح الحديبية ، وهذا يذكرّنا أن الصلح في ظاهره كانت بنوده تدل على أن قريش هي الفائزة المتعالية ، فإذا بها ترىٰ أن الصلح في كل بنوده كان لصالح المسلمين .

وقال رسول الله ﷺ : « كأنّكم بأبي سفيان قد جاءكم يشدُّ في العَقْد ، ويزيد في المدة ، وهو راجع بسخطه »[٢] .

---

(١) صلح الحديبية في ذي القعدة ٦ هـ ، وإلى آخر شعبان ٨ هـ ، عشرون شهراً ماانقضى من مدّته .

(٢) الاكتفاء ، جـ ١ ص ١/١٣٨ ، ابن خلدون ، جـ ٢ ص ٤٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ، ص ٢٨٠ ، السيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٢٩ .

وانطلق أبو سفيان بن حرب إلى المدينة ، وبِعُسْفَان التقى بديل بن ورقاء الخزاعي عائداً إلى مكة ، فقال : من أين أقبلت يابُدَيْلْ ؟ فقال بديل : سرت في خزاعة في هذا الساحل ، في بطن هذا الوادي .

ولكن أبا سفيان صاحب الحنكة والخبرة ، عمد إلى مَبْرَك ناقة بديل ، فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النَّوَى ، فقال في حذر وخوف : أحلف بالله لقد جاء بُدَيْلُ محمداً[1] .

وتابع أبو سفيان بن حرب طريقه إلى المدينة ليشدّ العقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهب ، كما رهبت قريش ، الذي صنعوا .

أبو سفيان عند ابنته أُم حبيبة زوج رسول الله ﷺ ، « درس من مؤمنة طاهرة صادقة » :

وقدم أبو سفيان المدينة المنوَّرة ، ودخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ[2] ، فلما أراد أن يجلس على فراش بيتها ، وهو فراش رسول الله ﷺ ، منعته وطوت الفراش ، فقال : يا بنيَّة ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أو رغبت به عنّي ؟!

---

(١) الطبري : جـ ٢ ص ٤٦ ، السيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٤ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٢) خطبها ﷺ وهي مهاجرة في الحبشة ، وأمر النجاشي أن يزوجه منها ويرسلها ومن عنده من المسلمين على سفينتين ، ففعل ، ووصلوا جميعاً ورسول الله ﷺ يفتح خيبر ، ولما علم أبو سفيان بزواجه ﷺ من ابنته أمّ حبيبة قال في حسرة : « هذا الفحل لا يُجْدَعُ أَنْفُهُ » .

أهـذا الفراش لا يليق بي وبمقـامي ومكانتي ؟ أَمْ أَنني لست أَهلاً كي أجلس عليه ؟

فقالت أمُّ حبيبة المؤمنة الطـاهرة الصَّـادقـة ، التي قـارب الإيمـان بينها وبين رسول الله ﷺ والمسلمين ، وباعد الشرك بينها وبين أبيهـا ، قـالت بثقـة وجرأة : هو فراش رسـول الله ﷺ ، وأنت مشرك نجس ، فلم أُحب أن تجلس على فراشه ، فقال أبو سفيـان : يـا بنيَّـة ، والله لقـد أصابك بعدي شَرٌّ ! فقالت : بل هداني الله تعالى للإسلام ، وأنت تعبـد حجراً لا يسمـع ولا يُبْصِر ، واعجبـاً منـك يـا أَبتِ وأنت سيـد قريش وكبيرها ! فقال : أنا أترك ما كان يعبد آبائي وأتَّبع دين محمد ؟

لم تنظر أُمُّ حبيبة إلى محمد بن عبـد الله - ﷺ - على أنـه زوج أوَّلاً وأَخيراً ، بينها وبينه صلة جسديـة فحسب ، إنهـا نظرت إليـه على أنَّـه رسول الله ، بينها وبينه صلة روحيَّة إيمانيَّـة ، وإلاّ لمـا عَبِئت إن جلس أبـوهـا على فراش رسـول الله ﷺ . فلن يخسر الفراش واقعـاً ومـادَّة ، ولكنه درس عملي لأبيها يُنْبئه عما فعل الإيمـان في القلوب ، وأن رابطـة العقيدة قد حلَّت قولاً وفعلاً مكان الرابطة العصبيَّة .

وهـذه التربيـة اقتضت إعـداداً طـويـلاً ، وزمنـاً ليس قصيراً ، كما اقتضت جهداً مضنياً مستمراً ، فوصل المسلمون إلى هـذا التصوُّر المتميِّز في نفـوسهم ، لقــد صُهرت نفـوسهم في بـوتقــة الإيمــان ، فعـزلت عنهـا شوائبها ، وأضحت خالصة صرفاً ، ليس فيها أحد غير الله .

لقد كانت العادةُ والإلْفُ أن تستقبل أباها ـ بعد طول غياب وهجرة ـ بالترحاب ، لو كان على عقيدتها ونهجها ، كما فعل المسلمون عند استقبالهم جعفر بن أبي طالب ومن معه عند عودتهم من الحبشة ، ولكن شركه ومحاربته لرسول الله ﷺ مع عناده وتعنُّته ، كانت معوِّقات قويَّة ، وسدوداً منيعة وقفت دون ذلك ، لقد كانت تربية رسول الله ﷺ تربية مستمرة متواصلة ، مُتَّجِهة دائماً إلى كمال هذا التصوُّر ، ليتميَّز المجتمع الإسلامي عما سواه في جزيرة العرب بصفة خاصة ، والعالم كلِّه بصورة عامَّة .

« تَتَبَّعتُ أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أَطوعَ منهم له » :

ثم خرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ وقال : يا محمد ، إني كنت غائباً في صلح الحديبية ، فاشدد العقد ، وامدد العهد ، وزدنا في المدَّة ، فقال رسول الله ﷺ : « ولذلك قَدِمت ؟ هل كان من حدث قِبَلَكم ؟ » ، وهنا يتساءل ﷺ عن موجبات طلب أبي سفيان ما دامت الأُمور طبيعية ، وبنود الصلح نافذة ، مالم تكن قريش قد أحدثت حدثاً ينقض الصلح .

فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغيِّر ولا نبدِّل . فقال ﷺ : « فنحن على مُدَّتِنَا وصلحنا » .

ثم ذهب أبو سفيان بن حرب إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، وهو يعلم مكانة الصدِّيق عند رسول الله ، فكلَّمه رجاء التوسُّط عند رسول الله ﷺ ، وقال له : جَدِّد العقد ، وزدنا في المدَّة . فقال أبو بكر : ما أنا بفاعل ، جواري في جِوار رسول الله ﷺ ، والله لو وجدت الذَّرّ تقاتلكم ، لأعنتها عليكم[1] . وهذا الجواب منطلق من عزم رسول الله ﷺ نصر خزاعة بعد الغدر بها وانتهاك بنود الصلح .

ثم أتى أبو سفيان بن حرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكلَّمه متوسِّطاً ، فقال عمر ، وهو المعروف المشهور بعداوته للكفر والمشركين : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لولم أجد لكم إلاَّ الذَّرّ لجاهدتكم به .

وقال عمر رضي الله عنه ، وقد علم بما فعلته قريش وحلفاؤها بنو بكر : ما كان من حلفنا جديداً فأَخْلَقه[2] الله ، وما كان منه مثبتاً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله .

فقال أبو سفيان : جُزِيتَ من ذي رحم شَرّاً .

ثم دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه فكلَّمه ، فقال عثمان :

---

(١) الذَّرّ : النمل ، وهنا مبالغة ، لأن الذر لا يقاتل .

(٢) أَخْلَقَه الله : أبلاه الله ، ثوبٌ خَلَقٌ : أي بالٍ ، مختار الصحاح : ص ١٨٧ .

جواري في جوار رسول الله ﷺ . ثم اتبع أشرافَ قريش والأنصار[1] يكلِّمهم ، وكلُّهم يقول : عَقْدنا في عقد رسول الله ﷺ .

ولما يئس مما عندهم دخل على علي رضي الله عنه ، فوجده عند فاطمة بنت رسول الله ، وعندها (الحسن) غلام يدبُّ بين يديها ، فقال : ياعلي ، إنَّك أمَسُّ القوم بي رَحِماً ، وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال علي : ويحك أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمْرٍ مانستطيع أن نكلِّمه فيه ، فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة فقال : يابنت محمد ، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فقالت : والله مابلغ بُنَيَّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على النبي ﷺ[2] .

---

(١) أتى أبو سفيان أشراف المهاجرين والأنصار ، وكل يقول : جواري في جوار رسول الله ﷺ ، وأتى سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال : ياأبا ثابت ، إنَّك سيد هذه البحيرة ، فأجر بين الناس ، وزد في المدَّة ، فقال سعد : جواري في جوار رسول الله ﷺ ، مايجير أحد عليه .

(٢) وقولها رضي الله عنها : لايجير أحد على رسول الله ، وقد قال عليه الصلاة والسَّلام : « يجير على المسلمين أدناهم » ، فمعنى هذا ـ والله أعلم ـ كالعبد ونحوه يجوز جواره فيما قيل ، مثل أن يجير واحداً من العدو ، أو نفراً يسيراً . وأمَّا أن يجير على الإمام قوماً يريد الإمام غزوهم وحربهم ، فلايجوز ذلك عليهم ، ولا على الإمام . وهذا هو الذي أرادت فاطمة رضي الله عنها . =

فقال أبو سفيان : ياأبا الحسن ، إني أرى الأُمور قد اشتدَّت عَليَّ فانصحني ، فقال علي رضي الله عنه : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأَجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك ، فقال أبو سفيان : أَوَ ترى ذلك مُغْنِياً عني شيئاً ؟ قال علي : لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك[1] .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أَيُّها الناس ، إِنِّي قد أَجَرْتُ بين الناس ، يا محمد إني قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أَظن أن يخفرني أحد ، ولا يرد جواري . فقال رسول الله ﷺ : « أنت تقول يا أبا حنظلة »[2] .

ثم ركب أبو سفيان بعيره فانطلق إلى مكة .

وقال ﷺ : « اللّهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة »[3] .

= وأمَّا جوار المرأة وتأمينها فجائز عند جماعة الفقهاء ، إلا سحنون وابن الماجشون فإنهما قالا : هو موقوف على إجازة الإمام ، وقد قال ﷺ لأُمّ هانئ : « قد أجرنا من أجرت يا أُم هانئ » وأما جوار العبد فجائز إلاَّ عند أبي حنيفة ، وقول رسول الله ﷺ : « يجير على المسلمين أدناهم » ، يدخل فيه العبد والمرأة ، [راجع الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٧] .

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٣٨ ، السيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣١ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٨ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٦ ، السيرة النبويَّة والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) السيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٣ .

(٣) السيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٤ . السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨٥ .

« الرَّاجِعُ بِسَخَطِهِ » :

وانطلق أبو سفيان حتى قَدِمَ على قريش وقد طالت غيبته ، واتَّهمته قريش أنَّه صَبَأ واتبع محمداً سِرّاً وكتم إسلامه[1] .

وسألته قريش : ماوراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟

قال : لا والله ، لقد أَبَى عليٌّ ، وقد تتبَّعتُ أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوعَ منهم له . جئت محمداً فكلَّمته ، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً ، ثم جئت ابنَ أبي قحافة (يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه) ، فوالله ما وجدت فيه خيراً[2] ، ثم جئت عمر فوجدته أَعْدَى عدوّ ، ثم جئت عليّاً فوجدته ألينَ القوم ، وقد أشار عليَّ بأمر صنعته ، فوالله ماأدري هل يغني عنا شيئاً أَمْ لا ؟ قالوا : بماذا أمرك ؟ قال : أَمرني أن أُجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : هل أَجاز ذلك محمد ، قال : لا ، قالوا : ويحك مازادكَ الرجل على أن لعب بك ، فما يغني عنا ماقلت ، فقال : لا والله ما وجدت غير ذلك ، فقالوا : رضيتَ بغير رضى ،

---

(١) قالت له زوجه هند : إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل .

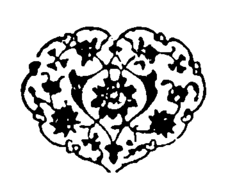
(٢) ماوجد فيه خيراً لما جاء من أجله ، ألا وهو أن يشد العقد ، ويزيد في المدة بعد الذي صنعوا بخزاعة .

وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، وإنّما لعب بك عَلِيٌّ لعمر الله ! ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهيِّن[1] .

وقالوا : ما جئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنأمن[2] .

ثم دخل على امرأته هند بنت عتبة فحدَّثها بما جرى ، فقالت : قُبِّحتَ من رسول قوم ، فما جئت بخير . فلما أصبح حلق رأسه عند أساف ونائلة ، وذبح عندهما البُدْنَ ، ومسح رؤوسها بالدم ، ليدفع عنه التهمة ، أنَّه قد صبأ .





---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٣٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٧ ، السيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٥ ، الطبري : جـ ٣ ص ٤٧ ، السيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨١ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٢ ، السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٣ .

(٢) السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٤ .

الاستعدادات

في المدينة المنورة

* أمر رسول الله ﷺ الناس بالغزو، ثم أمر بالطرق فَحُبِسَت، وقال: « اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادها، اللّهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلاّ بغتة، ولا يسمعون بنا إلاّ فجأة ».

ومكث رسول الله ﷺ أياماً، وكأنه يريد أن ينسى الناس الأمر، فإذا تجهّزوا تَحَيَّروا في مقصده.

وأمر رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تُجهّزه وُتخفي ذلك، ثم خرج إلى المسجد، أو إلى بعض حاجاته، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة فوجد عندها حنطة تُنَسَّف وتنقّى وتغربل، فقال لها: يابنيَّة، لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت، فقال: أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت، فقال: يريد بني الأصفر - يعني

الروم - ؟ فصمتت ، قال : فلعلَّه يريد أهلَ نجد ؟ فصمتت ، فقال : فلعلَّه يريد قريشاً ؟ فصمتت . فقال : أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز ؟ قالت : نعم فتجهَّز ، قال : وإلى أين ؟ قالت : ما سمَّى لنا شيئاً ، غير أنه قد أمرنا بالجهاز .

ودخل رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أتريد أن تخرج مَخْرجاً ؟ قال : « نعم » ، قال : فلعلك تريد بني الأصفر ؟ قال ﷺ : « لا » ، قال : أتريد أهلَ نجد ؟ قال ﷺ « لا » ، قال : فلعلك تريد قريشاً ؟ قال ﷺ : « نعم » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أليس بينك وبينهم مُدَّة ؟ قال ﷺ : « ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب ؟ »[1] .

وأذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ في الناس بالغزو ، وأعلم بعض الصحابة أنه سائر إلى مكة[2] ، وأفشى في الناس أنَّه يريد خيبر . كما أمر بالجدِّ والتهيُّؤ .

وقال رسول الله ﷺ : « اللّهم خذ العيونَ والأخبار عن قريش

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٨ ، السيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٢ .

(٢) وفي رواية أنه سائر إلى خيبر : « الدر المنثور : جـ ٦ ص ٢٠٣ » ، وأسرَّ إلى أُناس من أصحابه أنه يريد الدخول إلى مكة ، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة ، وأفشى في الناس أنه يريد خيبر .

حتى نبغتها في بلادها ، اللّهم خـذ على أسماعهم وأبصـارهم فلا يرونـا إلاّ بغتـة ، ولا يسمعون بنـا إلاّ فجـأة » ، وأخـذ ﷺ بـالطرق ، أي أوقف بكل طريق جماعـة ليعرف من يمر بهـا ، وقـال ﷺ لهم : « لا تـدعـوا أحداً يمر بكم تنكرونـه إلا رددتموه » ، « ثم أمر بـالطرق فحبست فعمى على أهل مكة لا يأتيهم خبر »[1] .

وبعث ﷺ إلى من حـولــه من العرب ليتجهَّـزوا ، ومنهم : أَسْلَم وغفـار ومزينـة وجهينـة وأشجع وسُلَيم .. منهم من وافـاه بـالمـدينـة ، ومنهم من لحقـه بـالطريـق[2] . والكل حـافـظ للسر ، مـع تكتُّم عمـا سيجري ، بعـد أن اتجـه إلى مكــة . ولم يتخلَّف أحــد من المهـاجرين والأنصار .

وقال حسَّان بن ثابت يحرِّض الناسَ ، ويذكر مصاب خزاعة :

عناني[3] ولم أَشْهَـد ببطحـاء مكَّـةٍ   رِجَـالُ بني كعب تُحَـزُّ رِقَـابُهَـا
بـأيـدي رِجَـالٍ لم يَسُلُّوا سُيَوفَهُمْ   وَقتلىٰ كثيرٌ لم تُجَنَّ ثيـابُهـا[4]

---

(١) السيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص٢٩٥ .

(٢) جاء المدينة : أَسْلَم وغفار ومزينة وأشجع وجُهَينة ، ولحق في الطريق : بنو أسد وسُلَيم .

(٣) في الطبري : جـ ٣ ص ٤٨ : « أتاني » .

(٤) يعني : لم تستر ، ويريد أنّهم قُتِلوا ولم يُدْفَنوا .

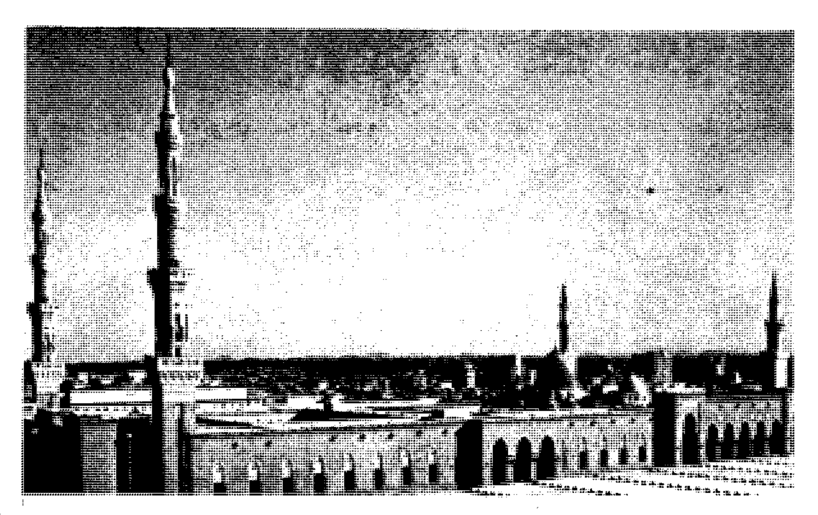
ألا ليت شعري هل تَنَالنّ نُصْرتي سُهَيْلَ بن عمرو[1] حُرُّها وعُقَابُها

وصفوان عَوْداً حُزَّ من شُفُراسْتِهِ فهذا أوانُ الحَرْبِ شُدَّ عِصَابُها

فلا تأمَنَنّا يا ابن أُمِّ مُجَالِدٍ إذا احتُلبتْ صِرْفاً وأعصلَ نابُها[2]

ولا تجزعوا منها فإن سُيُوفَنَا لَهَا وقعةٌ بالموت يُفْتَحُ بابُهَا[3]





المدينة المنورة

(١) يذكر بمن أعان بني بكر على خزاعة .

(٢) الصرف : الخالص ، وأعصل : أعوج ، يريد اشتداد الحرب ، وابن أُمِّ مجالد : عكرمة بن أبي جهل .

(٣) وفي الديوان موضع هذا البيت :

ولو شَهِدَ البطحاءَ مِنَّا عصابةٌ لهانَ علينا يومَ ذاكَ ضِرَابُها

حاطب بن أبي بلتعة

* قال حاطب : « أما والله ماارتبت منذ أسلمت في الله عز وجل ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، وماكفرت منذ أسلمت ، ولاشككت منذ استيقنت ، أما إني لم أفعله غِشاً لرسول الله ﷺ ، ولانفاقاً ، قد علمت أن الله مُظْهِرٌ رسولَهُ ومتمٌّ له أمره ، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم ، وكانت والدتي معهم ، فأردت أن أتَّخذ يداً عندهم »[1] .

وعندما قرَّر رسول الله ﷺ المسير ، أخبر صحابته أن غايته مكة ، فكتب حاطب بن أبي بلتعة[2] كتاباً إلى ثلاثة من قريش ،

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٨ ، السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) حاطب بن أبي بَلْتَعَة ، واسم أبي بلتعة عمرو بن عمير بن سلمة ، شهد بدراً والحديبية ، أرسله ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية سنة ست ، وبعد محاورة أوردناها في « غزوة مُؤْتَة » قال له المقوقس : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، توفي حاطب سنة ثلاثين ، وصلىٰ عليه عثمان ، وكان عمره خمساً وستين سنة ، أُسد الغابة : جـ ١ ص ٤٣١ ، الإصابة في تمييز الصحابة : جـ ١ ص ٣٠٠ .

وهم : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أُميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول ﷺ من الأمر في السير إليهم . ثم أعطاه لامرأة مشركة اسمها سارة[1] ، جاءت المدينة تسترفد ، فطلبت من رسول الله ﷺ الميرة ، وشكت الحاجة ، وكانت مُغَنِّية ، فقال لها ﷺ : « ما كان في غنائك ما يغنيك ؟ » ، فقالت : إن قريشاً منذ قتل منهم من قُتِل ببدر تركوا الغناء . فوصلها ﷺ حمولَةَ بعير طعاماً .

وجعل حاطب لسارة جُعْلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثم فَتَلَت عليه قرونَها ، ثم خرجت به ، وقال لها موصياً : اخفيه ما استطعتِ ، ولا تمرّي على الطريق . فإن عليه حُرَّاساً .

وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السَّماء بما صنع حاطب ، لقد أطلع الله عز وجل رسوله على ذلك ، استجابة لدعائه ، وإمضاءٍ لقدره في فتح مكة ، فبعث عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وقال ﷺ : « أدركوا امرأة قد كتب معها حاطبُ بنُ أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذِّرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم » .

---

(١) سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، قيل إنها من مُزَينة ، كانت مغنية بمكة ، ولما جاءت المدينة تسترفد ادعت الإسلام ، ثم ارتدت ، فهي ممن أُهدر دمه عند فتح مكة . وعلى هامش الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب : وجعل لها عشرة دنانير على ذلك ، وقيل ديناراً واحداً .

وقال ﷺ : « انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » .

فخرجوا حتى أدركوها ، فاستنزلوها عن بعيرها ، والتمسوا الكتاب في رَحْلها ، فلم يجدوا فيه شيئاً ، فقال لها علي رضي الله عنه : إني أحلف بالله ما كُذِبَ رسولُ الله ﷺ ولا كُذِبْنا ، ولتخرجِنَّ لنا هذا الكتابَ أو لنكشفنَّك ، لا نترك عليك ثوباً إلاَّ التمسنا فيه . قالت سارة : أَوَلستم بناس مسلمين ؟ قالوا : بلى ، ولكن رسول الله ﷺ قد حدَّثنا أن معك كتاباً[1] .

وخلع ثيابها ليس هدفه رؤية جمال لو حصل ، إنَّما المراد تحقيق هدف عسكري مرسوم ، مفاجأة قريش ، ليكون الفتح بأقل خسائر ممكنة .

ولما أيقنت أنهم ملتمسون كل ثوب معها ، حلَّت عقاصها[2] ، فأخرجت لهم الكتاب من بين قرون رأسها ، ودفعته إليهم . فأتوا به

---

(١) لأخبار حاطب هذه : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٦ ، الطبري : جـ ٣ ص ٤٨ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٧ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٣ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٢٩ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٢ ، الدر المنثور : جـ ٦ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) العَقِيصَةُ : الضَّفيرة ، وعقص الشعر ضفره ، مختار الصحاح ، ص ٤٤٦ .

رسولَ الله ﷺ[1] ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال : « أتعرف هذا الكتاب ؟ » ، قال : نعم ، فقال ﷺ : « يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟ » ، فقال حاطب : لا تعجل عَلَيَّ يا رسول الله ، إني كنت امرأ ملصقاً من قريش ، ولم أكن من أنْفَسِها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، أما والله ما ارتبت منذ أسلمت في الله عز وجل ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، وما كفرت منذ أسلمت ، ولا شككت منذ استيقنت ، أما إني لم أفعله غِشّاً لرسول الله ﷺ ، ولا نفاقاً ، قد علمت أن الله مُظْهر رسولَه ومتمٌّ له أمره ، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم ، وكانت والدتي معهم ، فأردت أن اتخذ يداً عندهم .

ومما قاله حاطب : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيَّرت ولا بدَّلت ، ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنني كنت أمرأً ليس لي

(١) وفي رواية : فَتَّشُوها فلم يقدروا على شيء معها ، فأقبلوا راجعين ، ثم قالوا : والله ما كذبنا ، ولا كذبنا ، ارجعوا بنا إليها ، فرجعوا إليها ، وسلُّوا سيوفهم وقالوا : والله لنذيقنك الموت ، أو لتدفعن إلينا الكتاب ، قالت : أدفعه إليكم على أن لا تردوني إلى رسول الله ، فقبلوا ذلك ، فقالت : اعرِضوا ، فأعرَضوا ، فحلَّت عقاص رأسها فأخرجت الكتاب من قرن من قرونها ، فدفعته إليهم فرجعوا به إلى رسول الله ﷺ ، فدفعوه إليه .

في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم[1] .

فقال ﷺ : « أما إنه قد صدقكم »[2] .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

ونافق هنا تعني خالف الأمر ، لا أنه أخفى الكفر ، ورأى عمر أن مخالفة أمره ﷺ مقتضية للقتل ، فقد أخفى ﷺ عن قريش ، وحرص على عدم وصول خبره إليهم ، وإرساله جماعة على الطريق حتى لا يبلغهم الخبر ، فظن عمر رضي الله عنه أنّه يستحق القتل ، لكنه لم يجزم بذلك ، لذلك استأذن في قتله .

فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ »[3] .

وليس في ذلك إباحة المعاصي لهم ، وإنما هو خطاب إكرام

---

(١) أقواله مجموعة من جملة مصادر أتينا على ذكرها قبل حاشيتين .

(٢) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٨ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب ، السيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٧ ، السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٧ .

وتشريف تضمن أنهم رضي الله عنهم حصلت لهم حالة غُفِرَت بها ذنوبهم السالفة ، وتأهَّلوا لأن يغفر لهم ما سيحصل من الذنوب لو فرض وقوعهم بها .

وأهل بدر على مستوى رفيع من الإيمان ، فالمعاصي أبعد ما تكون عن فعالهم وأقوالهم ، وأظهر الله سبحانه صدق رسول الله في كل ما أخبر عنه بشأنهم ، فإنَّهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنَّة إلى أن فارقوا الدنيا ، ولو قُدِّر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى ، يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على مسيرهم رضي الله عنهم[1] .

وبعد أن سمع عمر قول رسول الله ﷺ . دمعت عيناه ، وقال : الله ورسوله أعلم ، وهذا يدل أيضاً ، على أن المسلم الكامل الإيمان ، لا يقدِّم رغبته على رغبة رسول الله ، ولا رأيه على رأي رسول الله ، ولا إرادته على إرادة رسول الله ﷺ .

وأنزل الله عز وجل في حاطب : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) السيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٨ .

أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١] .

وأورد السُّهيلي نصَّ الرسالة كما يلي : « إن رسول الله قد توجَّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيل ، وأُقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم ، فإنَّه منجز له ما وعده »[٢] .

وفي تفسير ابن سلاَّم ورد نص الكتاب كالتالي : « إنَّ محمداً قد نَفَر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر » .

وفي السِّيرة الحلبيَّة : « إن رسول الله ﷺ قد آذن بالغزو ولا أراه إلاَّ يريدكم ، وقد أحببت أن تكون لي يد بكتابي إليكم »[٣] .

عَلَىٰ هَامِشِ قِصَّة حَاطِب :

جاء في « الظلال » جـ ٨ ، ص ٥٥ وما بعدها تعليقٌ رائعٌ حول حادثة حاطب التي أوردناها ، نقتطف منه ما يلي « بتصرف » :

---

(١) الممتحنة : ٦٠/ ١ و ٢ و ٣ . ولقد شهد الله عز وجل لحاطب بالإيمان في أول الآية الأُولىٰ تصديقاً لشهادة رسول الله ﷺ .

(٢) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٧ ، وهكذا وردت في عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٣ .

(٣) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٧ .

إن حاطب بن أبي بلتعة[1] أحد المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم ، ماتزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذريَّة وأزواج وذوي قربى ، وعلى الرغم من كل ماذاقوا من العنت والأذى في قريش ، فقد ظلَّت بعض النفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودَّة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلِّفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم ، وتقطع مابينهم وبينهم من صلات .

وكان الله عز وجل يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه ، وهو سبحانه يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعاً ، وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالاً بعصبيَّة القبيلة والعشيرة والبيت ، فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث ، وليكون الطرق والحديد ساخن .

حاطب مسلم مهاجر ، وأحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر تحرُّكه ، ولكنها لحظة ضعف بشري لنفس مؤمنة ، وهذا يدل على أنه لاعاصم إلا الله في هذه اللحظات .

---

(١) البلتعة في اللغة التظرُّف ، تبلتع في كلامه إذا تظرف فيه .

ومن عظمة رسول الله ﷺ أنه لم يعجل على حاطب ، وسألَهُ : ما حملك على ما صنعت ؟ في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة العارضة ، وأدرك ﷺ أن الرجل قد صدق ، وكفَّ الصحابة عنه ليعينه وينهض به من عثرته ، فلا يطارده بها ، ولا يدع أحداً يطارده .

وعمر رضي الله عنه نظر إلى العثرة ذاتها فقال : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني - يا رسول الله - فلأضرب عنقه[1] ، لقد ثار حسه الحاسم ، وإيمانه الجازم .

ونظرة رسول الله ﷺ تقويم لماضٍ عريق طيِّب ، مع نظرة العطف التي نظرت إلى القضيَّة نظرة كُلِّيَّة ، فهو موقف المربِّي الكريم العطوف المتأنّي ، الناظر إلى جميع الملابسات والظروف .

وحاطب في لحظة ضعفه ، وخفوت إيمانه ، جعل اللهَ هو الذي يرفع عن أهله وماله : « يدفع الله بها عن أهلي ومالي » ، فالله حاضر في تصوُّره ، وهو الذي يدفع لا العشيرة ، إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . وحاطب على يقين في لحظة ضعفه : « وأقسم بالله لو سار إليكم وحده - يعني رسول الله ﷺ - لنصره الله عليكم ، فإنه منجز له ما وعده » .

---

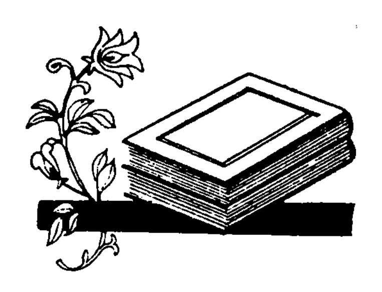
(١) علّق ﷺ حكم المنع من قتله بشهود بدر ، فدل على أن من فعل مثل فعله وليس ببدري أنه يقتل .

لقد أطلعَ رسولُ الله ﷺ القلّة التي يعهد إليها بسر الحملة ، ولكن تدرك حاطب لحظة ضعف بشري ، وهو من القلّة المختارة ، ثم يجري قدر الله بكفّ ضرر هذه اللحظة عن المسلمين ، كأنّما القصد هو كشفها فقط وعلاجها .

ومن روائع هذه الحادثة أن الذين لم يستودعوا هذا السر ماقالوا : هاهو ذا أحد من استودعوا السر خانه ، ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! فلم يُرْو من هذا شيءٌ ، مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم وتواضعهم في الظن بأنفسهم ، واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

وكان القرآن الكريم أبعد مدى في هذه الحادثة من معالجة شخص بذاته فقط ، فعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلّي إلى الأُفق العالمي الإنساني ، وهدفه أن ينشئ في هذه النفوس صورة جديدة ، وقيماً جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنساني ، وكأنه يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ، ليعلمهم الله ويبصّرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجرّدين من كل وشيجة غير وشيجته في عالم الشعور ، وعالم السلوك .

وبنداء ودود موحى : ﴿ يَـاأَيُّهـا الَّـذِينَ آمَنُوا لاَتتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَدوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ، وفي منتهى المودَّة يجعل سبحانه وتعالى عدوهم عدوَّه ، وعدوَّه عدوهم ، ثم يـذكِّر بجريرة هؤلاء الأعـداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم وعـدوانهم على هـذا كلِّـه في تجنٍّ وظلم : ﴿ وَقَـدْ كَفَرُوا بِمَـا جَـاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ * يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيـاكُمْ * أَنْ تُؤْمِنُوا بِـاللهِ رَبِّكُمْ ﴾ ، إنَّـه يهيج في قلوب المـؤمنين هـذه الـذكريـات المرتبطـة بعقيـدتهم ، وهي التي حـاربهم المشركـون من أجلهـا ، لا من أجل أي سبب آخر ، فالقضيَّة قضيَّة عقيـدة دون سواهـا ، قضيَّـة الحق الذي كفروا بـه ، والرسول الـذي أخرجوه ، والإيمـان الـذي من أجلـه أخرجوهم ، فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، مع مودَّة لمن أخرجه من أجل إيمـانـه بـالله ، وهو عـدو الله ، وعدو رسول الله .



إلى الفتح الأعظم
« ١٠ رمضان ٨ هـ »

*** كان شعار المهاجرين يوم الفتح : « يا بني عبد الرحمن » ، وشعار الخزرج : « يا بني عبد الله » ، وشعار الأوس : « يا بني عبيد الله » ، شعارهم الذي يعرف به بعضهم بعضاً في ظلمة الليل وعند اختلاط الحرب .**

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة المنوَّرة أبا رُهم كلثوم بن حُصَين بن عتبة بن خلف الغفاري[1] ، وخرج لعشر مضين من شهر رمضان . فلما خرج ﷺ من المدينة نادى مناديه من أحب أن يصوم فليصم ، فصام رسول الله ﷺ وصام الناسُ معه ، حتى إذا كان بالكَدِيد بين عُسْفَان وأمَج ، وبلغ أدنى منزل يلقى العدوَّ ، واشتد العطش ،

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٣٩ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٨٨ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٣ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٠ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٥ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٩٩ .

وشق على الجند الصيام ، وهم ينظرون ماذا يفعل رسول الله ﷺ ، استوى ﷺ على راحلته بعد العصر ، ودعا بإناء فيه ماء فشرب ، ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك إن بعض الناس صام ، فقال : « أولئك العصاة »[1] ، لأنهم خالفوا أمره ﷺ بالفطر ، ليقووا على لقاء عدوهم ، وقال لهم ﷺ : « إنكم قد دنوتم من عدوِّكم والفطر أقوى لكم »[2] .

لما سبق ، كان ابن عباس يقول : صام رسول الله ﷺ في السَّفر وأفطر ، فمن شاء صام ومن شاء أفطر .

ثم نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظَّهران في عشرة آلاف من المسلمين[3] .

☆ ☆ ☆

آخِرُ المُهَاجِرِينَ :

وهاجر العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٤٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٦ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٠ .

(٣) هذا العدد أرجح التقديرات . وفي رواية عروة بن الزبير : كان معه ﷺ اثنا عشر ألفاً ، وكذا قال الزهري ـ يعني ابن سعد ـ وموسى بن عقبة . راجع الجدول لمعرفة عدد كل قبيلة وعدد ألويتها وفرسانها وحامل لوائها ...

المخزومي ، أخو أُمِّ سلمة أم المؤمنين ، فوافوه ﷺ في أثناء الطريق ، وهو ذاهب إلى فتح مكة .

جَيش الفتح الأَعظم

القبيلة أو اسم الكتيبة	عدد أفرادها	عددألويتها	حاملو الألوية
بنو سُلَيْم بقيادة خالد بن الوليد	٧٠٠ ـ ١٠٠٠	٢	العباس بن مرداس خفاف بن ندبة
المهاجرون بقيادة الزبير بن العوام	٧٠٠ + ٣٠٠ فرس	١	الزبير بن العوام
بنو غِفَار	٤٠٠	١	أبو ذر الغفاري
أَسْلَم	٤٠٠ + ٣٠ فرساً	٢	بريدة بن الحصيب ناجية بن الأعجم
خزَاعَة « بنو كعب بن عمرو »	٥٠٠	١	بشير بن سفيان
مُزَيْنَة	١٠٠٣+١٠٠ فرس	٣	النعمان عبد بن عمرو بن عوف بلال بن الحارث

القبيلة أو اسم الكتيبة	عدد أفرادها	عددألويتها	حاملو الألويَة
جُهَيْنَة	٨٠٠+ ٥٠ فرساً	٤	معبد بن خالد سويد بن صخر رافع بن مكيث عبد الله بن بدر
كنانة ، بنو ليث ضمرة ، سعد بن بكر	٢٠٠	١	أبو واقد الليثي
أشْجَع	٣٠٠	٢	معقل بن سنان نعيم بن مسعود الأشجعي
قضاعة : بنو تميم ، بنو فزارة وسعد بن هزيم	١٠٠٠	عِدَّة ألويَة	مع عدة أبطال ألوية ورايات
الكتيبة الخضراء : الأنصار وكبار الصحابة المهاجرين	٤٠٠٠+ ٥٠٠ فرس	عِدَّة ألويَة	مع كل بطل من أبطال الأنصار لواء وراية

قال ابن هشام : لقي العباسُ رسولَ الله ﷺ بالجُحْفَة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راضٍ . وكان قد استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فكتب إليه رسول الله : « ياعم ، أقم مكانك الذي أنت فيه ، فإن الله يختم بك الهجرة . كما

ختم بي النبوَّة » . ولما لقيه قال ﷺ : « هجرتـك يـا عم آخر هجرة ، كما أن نبوتي آخر نبوَّة »[1] .

أبو سفيان بن الحارث بن عبـد المطلب ، وعبـــد الله بن أبي أُميَّــــة بن المغيرة :

والتقى رسول الله ﷺ بأبي سفيان (المغيرة) بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أخاه ﷺ من الرضاعة ، رضعا من حليمـة السعـديـة ، وكان آلف الناس له قبل النبوة[2] .

والتقى بعبد الله بن أبي أُميَّـة بن المغيرة ، ابن عمتـه عـاتكـة بنت عبد المطلب ، أخو أُمّ سلمة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها لأبيها ، لأن والدة أُمّ سلمة عاتكة بنت جندل الطعـان ، وكان عنـد أبيهـا أُميَّـة بن المغيرة زوجتان أيضاً ، كل منهما تسمى عاتكة ، فكان عنده أربع عواتك .

وكان اللقـاء بنِيـق العُقَـاب ـ فيما بين مكـة والمـدينـة ـ والتَمَسـا الـدخـولَ على رسـول الله ﷺ لِيُسَلِّما عليـه . فكلمتــه أُمُّ سلمــة فيهما ،

---

(١) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٤٢ ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ٣٠ ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٤٣ .

(٢) عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٧ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٢٨٧ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٦٤ .

فقالت : يا رسول الله إبنُ عمك وابن عمتك وصِهْرك ، فقال ﷺ : « لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي (أبو سفيان) فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي (عبد الله) فهو الذي قال لي بمكة والله لا آمنت بك حتى تتخذ سُلّماً إلى السّماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك »[1] .

فلما خرج إليهما الخبر بذلك ، ومع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بُنَيّ له ، فقال : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بُنَيّ هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رَقّ لهما ، ثم أَذِنَ لهما ، فقال علي رضي الله عنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[2] ، فإنّه ﷺ لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه ، فلما دخلا عليه ﷺ ، وقالا ما أرشدهم إليه علي رضي الله عنه[3] ، قال

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٨ ، السِّيرة النبويّة والآثار المحمّدية ، جـ ٢ ص ٣٠٠ ، السِّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٤٣ .

(٢) سورة يوسف : ٩١/١٢ .

(٣) ومما قاله أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لرسول الله ﷺ : ما كدت تأذن لي حتى أذنت لحجارة الجَلْهَتين ـ ويروى الجلهمتين ، وهما جانبا الوادي ـ فقال له رسول الله ﷺ استئلافاً له ما سيرد ذكره ، ومنه : « كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الْفَرَأ » ، راجع : فصل المقال في شرح كتاب الأمثال : ص ١٠ ، لأبي عبيد البكري .

ﷺ : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بعد ذلك لا يرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياء منه ، لأنَّه عاداه نحو عشرين سنة يهجوه ، ولم يتخلَّف عن قتاله ، وكان ﷺ بعد ذلك يحبه ويشهد له بالجنَّة ، ويقول : « أرجو أن يكون خَلَفاً من حمزة » ، وقال له ﷺ يوماً : « الصَّيْدُ كل الصَّيد في جوف الفَرَأ »[2] ، توفي زمن عمر ، وقال أبو سفيان بن الحارث عند موته : لا تبكين عَلَيَّ فإني لم أنطق بخطيئة منذ أسلمت .

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عند إسلامه معتذراً مما كان منه :

---

(١) سورة يوسف : ١٢ / ٩٢ .

(٢) قال (ﷺ) المثل تألُّفاً له . وأصل المثل : تصيَّد قوم فاصطاد بعضهم أرنباً ، وبعضهم ظبياً ، وبعضهم فَرَأً أي حماراً وحشياً . فجاؤوا بصيدهم صاحبهم فطرحوه بين يديه فقال ذلك ، أراد أنه أكبر الصيد ، فإذا اصطيد فهو بمنزلة كل الصيد ، وقد ضربه (ﷺ) لأبي سفيان حين قال : أنت ياأبا سفيان كما قيل : وكل الصَّيْد في جوف الفَرَأ ، يُضْرَب في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لِعِظَمِه . راجع : الزمخشري : جـ ٢ ص ٢٢٤ ، وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم ، ومادة فَرَأ في لسان العرب ، جـ ١ ص ١٢١ ، والمراد هنا : أي إنك ـ ياأبا سفيان ـ في الرجال كالفَرَأ في الصيد .

لَعَمْرُكَ[1] إني يومَ أَحْمِلُ رايةً ... لتغلبَ خَيْلُ اللاَّتِ خيلَ مُحَمَّدِ
لكالمُدْلجِ الحيرانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فهذا أواني حين أُهْدَى وأَهْتَدي
هداني هادٍ[2] غير نفسي ونالني ... مع الله من طَرّدتُ كلَّ مُطَرَّدِ
أَصُدُّ وأَنأى جاهداً عن مُحَمَّدٍ ... وأُدْعَى وإن لم أَنْتَسِب من مُحَمَّدِ
هُمُ ماهُمُ من لم يَقُل بِهَواهِم ... وَإن كان ذا رأيٍ يُلَمْ وَيُفَنَّدِ
أُريد لأُرضيهم ولستُ بلائطٍ[3] ... مع القومِ مالم أُهْدَ في كل مقعدِ
فَقُلْ لثقيفٍ لا أُريدُ قتالها ... وقل لثقيفٍ تلكْ غَيريَ أوْ عِدي
فما كنتُ في الجيشِ الذي نَالَ عامراً ... ولا كان عن جرَّا لساني ولا يدي
قبائِلُ جاءت من بلادٍ بعيدةٍ ... نَزَائعَ جاءت من سَهامٍ وسُرْدَدِ[4]

وعندما قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : « ونالني مع الله من طرّدت كُلَّ مُطَرّدِ » ، ضرب رسول الله ﷺ بيده في صدره ، وقال له : « أنت طردتني كلَّ مطرد »[5] .

---

(١) في الطبري : جـ ٣ ص ٥١ : لعمري .

(٢) في الطبري : جـ ٣ ص ٥١ : وهادٍ هداني .

(٣) استلاطه : ألزَقَه بنفسه ، وفي الحديث : « استلطتُم دَمَ هذا الرجل » أي استوجبتُم ، مختار الصحاح : ص ٦٠٨ .

(٤) سَهام وسُرْدَدِ : اسم لموضعين من أرض عك ، والأبيات في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٨/ب ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٣١ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٤ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٨ ، والرواية هنا في السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٤٤ .

(٥) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٢ ص ٥٤٤ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥١ .

الجَيْشُ في مَرِّ الظَّهْرَان :

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى مَرِّ الظهران ، نزل جيش الفتح فيه فأقام ، وأرسل ﷺ بعض المسلمين يجتنون الكِبَاثَ ـ ثمر الأراك ـ فقال لهم ﷺ : « عليكم بالأسود منه فإنَّه أطيب » ، قالوا : يا رسول الله ، أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « نعم ، وهل من نبي إلاَّ وقد رعاها ؟ »[(١)] .

وكان ممن انطلق لجني الكِبَاث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فجعل أحدهم إذا أصاب حبة طيبة قذفها في فيه ، وكانوا ينظرون إلى دِقَّة ساقَيْ ابن مسعود وهو يَرْقَى في الشجرة فيضحكون ، فقال رسول الله ﷺ : « تعجبون من دقة ساقَيْه ؟ فوالذي نَفسي بيده لهما أثقلُ في الميزان من أُحُد » ، وهذا مصداقٌ لقوله ﷺ : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » ، وبذلك لم يحفل الإسلام بجثة أو مظهر عند تقويم الإنسان[(٢)] .

---

(١) رعي الغنم فيه خلوة مع الله عز وجل ، فيه تَفكُّر بالخالق المبدع ، قيوم السموات والأرض ، تفكُّر بالأرض والسَّماء ، بالكون كله .. وكل ذلك يدعو إلى معرفة الخالق وإبداعه فيما خلق ، إلى ما في البراري من صفاء للنفس ، وعزلة عن كل ما يشغل عن الله عز وجل .

(٢) وأحضر ابن مسعود ما اجتنى من ثمر وأجود ما اجتنى ما زال فيه لم يأكله ، ولم يعطه لأحد ، وقدَّمه لرسول الله (ﷺ) ، وقال :

هـذا جَنـايَ وخيـاري فيـهِ ... إذْ كُـلُّ جَـانٍ يَـدُهُ إلى فِيـهِ

وبمرِّ الظهران رأى بعض المسلمين أرنباً ، فسعوا في أثرها حتى تعبوا ، وأدركها أنس رضي الله عنه ، فأخذها وأتى بها أبا طلحة فذبحها ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بوِرْكها وفخذيها فَقَبِلَه .

هَل عُمِّيَتِ الأَخْبَارُ عَن قريشٍ تَمَاماً ؟ :

وصل جيش الفتح الأعظم إلى مَرِّ الظهران ـ على بعد أربعة فراسخ من مكة[1] ـ دون أن تستعد قريش للقائه ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، التالي : هل عُمِّيت الأخبار عن قريش تماماً ، فهي غافلة عما يجري بحقِّها بعد خرقها لصلح الحديبية ؟

أَمْ أَنَّها ظنَّت أن العقاب سيكون لبني بكر دون غيرهم ؟

أَمْ أن الإسلام دخل كل بيت في المجتمع المكِّي ـ سِرّاً أو علانية ـ ، فما عاد تحت قيادة موحَّدة ، هي قيادة وزعامة أبي سفيان بن حرب ، فتشتت قواه ، وانهارت روحه المعنويَّة ؟

ونجيب بما يلي : إن إخفاق أبي سفيان بن حرب في مهمته في المدينة المنوَّرة ، يجعلنا نقول : إن الغزو أمر متوقَّع ، حتى إن قريشاً قالت لأبي سفيان عند عودته إلى مكة : قبَّحك الله من وافد قوم ، فما جئت بخير ، ما جئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنأمن .

كما علم أبو سفيان بن حرب بوفد خزاعة الذي قدم المدينة يستنصر رسول الله ﷺ ، أما قام إلى مبرك ناقة بُدَيل بن ورقاء الخزاعي ،

---

(١) الفرسخ الشرعي يساوي ٥٥٤٤ م ، أي ٥,٥٤٤ كم ، فالمسافة إذن من مكة = ٥,٥٤٤ × ٤ = ٢٢,١٧٦ كم . [راجع : كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ، لأبي العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصاري : ص ٧٧ ، تحقيق د . محمد أحمد اسماعيل الخاروف] .

وأخذ من بعرها ففتَّه فرأى فيه النَوَى ، فقال في حـذر وخوف : أحلف بالله لقد جاء بُدَيلُ محمداً ؟

أمَّـا أنَّهـا ظنَّت أن العقـاب سيكـون لبني بكر دون غيرهم ، أمر مرفوض لسببين :

١ ـ لأن قريشاً شاركت بـالرجـال والسِّلاح بني بكر ، فـالعقـاب للطرفين .

٢ ـ ولأن فئة من قريش أخذت تستعد للقتال ـ كما سيمر معنا ـ .

والمجتمع المكي حقيقة مـا عـاد تحت قيـادة موحَّـدة ، فقسم أسلم بعـد الحـديبيـة ، وبعـد عمرة القضـاء ، وقسم تهيَّـأت قلـوبهم لتقبُّلـه ، وقسم خرج مسلماً قبيل الفتح كأبي سفيان بن الحارث بن عبـد المطلب وعبـد الله بن أبي أُمية .. وقسم سيخرج طالبـاً الأمـان لنفسـه ، وقسم استعـد للقتال والمواجهة .

فالمجتمع المكي ماعـاد كما كان أيـام بـدر ، أو أُحـد ، أو الخنـدق ، أو الحديبية ، لقد انهارت روحه المعنوية عندما تشتت قواه . ولكن الغزو متوقَّع لاشك عند الجميع ، والذي عُمِّي عن قريش : متى وكيف ؟

ـ متى سيكون الغـزو ؟ سريعـاً فـوريـاً ، أم بعـد زمن ولا سيما أن المسلمين في شهر رمضان ، فهم صائمون في شهر عبادة ؟

- وكيف سيكون الغزو ؟ هل هو حشد لفرض شروط صلح جديدة ؟ أم فتح لمكة كما فتحت خيبر ؟ أم أن نظرة المسلمين للكعبة المشرفة ، واحترامهم العظيم لها سيحل الموقف بالمفاوضات ؟

إن أمراً متوقعاً لابدَّ من وقوعه ، ولكن متى ، وكيف ؟ هذا ماعُمِّي عن قريش !!

زُعَمَاءُ قُرَيش يَتَجَسَّسُون الأَخْبَار :

وبمَرِّ الظهران أمر رسول الله ﷺ جيش الفتح أن يوقدوا ناراً ، فأوقدوا عشرة آلاف نار[1] .

وجعل ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2] .

وكما قلنا عُمِّيت الأخبار على قريش « متى وكيف ؟ » ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ماهو فاعل ، وجيش الفتح بمَرِّ الظهران . وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حِزام وبُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي يتجسَّسُون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٥ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٠ .

وهنا نتساءل : أبو سفيان بن حرب ، زعيم مكة يخرج لمهمة استطلاع بنفسه ؟ أمر غير عادي ، وحدث غير طبيعي !!

ورد في إمتاع الأسماع[1] : « بعثت ـ أي قريش ـ أبا سفيان يتحسَّس الأخبار ، وإن لقي محمداً يأخذ لهم منه جواراً ، فإن رأى رِقَّة[2] من أصحابه آذن بالحرب » .

فإرسال أبي سفيان بن حرب ، إرسال زعيم صاحب قرار ، ومطلق التصرُّف لتحديد موقف وسلوك حسب قوى المسلمين[3] .

أما حكيم بن حزام ، فهو رجل معروف بتعاطفه مع المسلمين ، وقد اشتهر بذلك :

- فهو الذي أمدَّ بني هاشم بالطعام عندما حوصروا في شعاب مكة .
- وهو الذي نقض الصحيفة وأزالها من الكعبة المشرَّفة .
- وكان على خلاف مع أبي جهل بشأن بدر ، وأراد حقن الدماء .

فكأنه شفيع دفعت قريش به ورقةً رابحةً في وجه جيش الفتح ،

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزي : جـ ١ ص ٣٦٨ .

(2) المراد هنا ضعفاً .

(3) ولتجسس زعماء قريش ، راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٣٩ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٤٦ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٢ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٢ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٩ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٠٣ .

فمواقفه الماضية تشفع لهم عند رسول الله ﷺ ، وتحفظ لهم ماء وجههم عند الحاجة .

وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي مِمَّن وفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة في كوكبة من خزاعة يطلب نصرته ـ رغم شركه ـ « فأخبروه بما أُصيب منهم ، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم » ، فقال لهم ﷺ : « ارجعوا فتفرَّقوا في الأودية » ليخفي مجيئهم إليه ﷺ . فَبُدَيل ، شعوره مع مَنْ ؟!

لا عشوائيَّة ولا فوضى ، بل يقظة ونظَام :

لقد جعل ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ، فبث بين يدي جيش الفتح عيوناً ، منهم المشاة ، ومنهم الخيَّالة يقتصُّون العيون ـ الجواسيس ـ ويراقبون كل حركة ، فيها ما يشعر قريش بقدومهم ، وخزاعة أيضاً لا تدع أحداً يمضي تجاه قريش ، وهذا يعني أن خزاعة على علم بما يجري ، ولكنها حفظت سرَّ رسول الله ﷺ ، تنفِّذ خطته بدقة والتزام تام .

وفي مَرِّ الظهران فإذا أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حِزام وبُدَيل بن وَرْقَاء الخزاعي بنيران كأنها نيران عَرَفة ، فقال أبو سفيان : ما هذِه ؟ كأَنَّها نيران عرفة ؟! فقال بديل بن ورقاء : نيران بني

عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم[1] .

قال العباس : حين نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظهران ، قلت : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه لهلاكُ قريش إلى آخر الدهر .

يقول العباس : فجلستُ على بغلةِ رسول الله ﷺ البيضاء ، فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت لعلِّي أجد بعضَ الحطَّابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عَنْوَةً . لقد أراد العباس رضي الله عنه تحطيم معنويات قريش ، وإقناعها بعدم جدوى المقاومة .

ويقول العباس : فوالله إني لأسير عليها - على بغلةِ رسول الله - وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعتُ كلام أبي سفيان وبُدَيل بن وَرْقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ،

(١) عُرِف أبو سفيان ومن معه بسبب وجود الحراسة الدقيقة حول معسكر المسلمين ، ولوجود (كلمة سر) يتعارف المسلمون بعضهم بعضاً بها ، لقد كان شعار المهاجرين يوم الفتح « يابني عبد الرحمن » ، وشعار الخزرج « يابني عبد الله » ، وشعار الأوس « يابني عبيد الله » ، وكلمة شعارهم تعني « كلمة السر » التي يعرف بها بعضهم بعضاً في ظلمة الليل ، وعند اختلاط الحرب .

ولاعسكراً ، وبديل يقول : هذه والله خزاعة حَمَشَتْها الحرب[1] ، ويجيب أبو سفيان : خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعَسْكرها .

ومن حرس جيش الفتح أخذ العباس أبا سفيان وصاحبيه ، ورئيس الحرس ينظر ـ عمر رضي الله عنه ـ ولم يقتله مباشرة لقول رسول الله ﷺ : « إنكم لاقون بعضَهم فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه »[2] .

قال العباس : فعرفت صوته فقلت : ياأبا حنظلة[3] ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ؟ قال العباس : نعم ، قال أبو سفيان : مالك ؟ فدىً لك أَبي وأُمي ؟!

العباس : ويحك ياأبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الناس .
أبو سفيان : واصباح قريش والله ! فما الحيلة فداك أَبي وأُميّ ؟

العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك . فركب أبو

---

(١) حمشتها : أغضبتها ، وحمستها : اشتدت عليها من الحماسة وهي الشدة . وفي الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٩ : حمشت الرجل إذا أغضبته .
(٢) السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٠٤ .
(٣) حنظلة بن أبي سفيان ، قُتِلَ يوم بدر .

سفيان خلف العباس ، وعمر رضي الله عنه وبعض الحرس يراقبونه .

قال العباس : فجئت بأبي سفيان ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عمُّ رسول الله على بغلة رسول الله ﷺ . وعمر رضي الله عنه يقول : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ولقد همَّ عمر بأبي سفيان أكثر من مرَّة ، ووجأه في رقبته ، فمنعه منه العباس ، ووصية رسول الله ﷺ .

وعند قُبَّة رسول الله ﷺ أخذ الحرس بأَزِمَّة جمالهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : وفد رسول الله ﷺ ، وتعرَّفوا على العباس ، فدخلوا على رسول الله ﷺ .

ودخل عمر معهم وقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكنَ الله منه بغير عَقْد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرته . فلما أكثر عمر في شأن أبي سفيان ، قال العباس : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ماقلت هذا ، ولكنك قد عرفتَ أَنه من رجال بني عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً ياعباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، ومابي إلاَّ أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . وهذه حقيقة ؛ فعمر ما كان يحكِّم

في تصرفاته كلها إلا عقيدته ، بعيداً كل البعد عن قبليَّة أو عصبية ، وخلافته تشهد بذلك .

وحادث القومَ رسولُ الله ﷺ عامة الليل ، ثم قال ﷺ : « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به »[1] .

فذهب العباس به إلى رحله ، فبات عنده ، فلما أصبح رأى الناس يتهيَّؤون للصلاة ، وينتشرون في استعمال الطهارة ، فقال للعباس : يا أبا الفضل ما للناس ، أُمروا فِيَّ بشيء ؟ فقال العباس : لا ، ولكنهم سمعوا النداء ، فهم ينتشرون للصلاة ، فلما حضرت الصلاة ورآهم يركعون ويسجدون بسجوده ﷺ قال أبو سفيان : يا عباس ، ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه ؟ ما رأيت كاليوم طاعة قوم بجبهم من ههنا وههنا ، ولا فارس الأكارم ، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له . قال العباس : نعم والله ، لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه .

وذكر موسى بن عقبة عن ابن سعد ، أنه لما توضَّأ رسول الله ﷺ

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٣٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٦٩ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٨٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٣ ، السِّيرة الحلبيَّة ، جـ ٣ ص ٩١ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥١ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٠٤ .

تلقى المسلمون ماء وضوئـه ، فقـال أبو سفيـان : يـاعبـاس ، مـا رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصر .

وفي الصباح قال ﷺ : « ويحك ياأبـا سفيـان ، ألم يَـأْنِ لـك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي أنت وأمي ! ماأحلمك وأكرمـك وأوْصَلَك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقـد أغنى عني شيئـاً بعد . قال ﷺ : « ويحك ياأبا سفيان ، ألم يَأْنِ لـك أن تعلم أني رسول الله ؟ » ، قال : بأبي أنت وأُمي ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ، أَمَّا هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً[1] .

فقال له العباس : ويحـك أسلم واشهـد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسول الله قبـل أن تُضرب عنقـك . فشهـد شهـادة الحـق وأسلم . فقـال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفَخْر فاجعل لـه شيئاً ، وذلك تثبيتاً لإسلامه كيلا يدخل عليـه حـظ النفس من حيث أنه كان متبوعاً فـأصبح تـابعـاً ليس لـه من الأمر شيء . وقـال أبو بكر رضي الله عنـه : يـا رسول الله ، إن أبـا سفيـان رجل يحب السماع ـ أي الشرف ـ فـاجعـل لـه شيئـاً . فقـال ﷺ : « نعم ، من دخـل دار أبي

---

(١) ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٣ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٠ ، وفي السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٢ ، والسِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٠٤ : حين عرض رسول الله (ﷺ) الإسلام على أبي سفيـان ، قـال أبو سفيـان : كيف أصنع بـالعُزَّى ؟ فسمعه عمر رضي الله عنه من وراء القبـة ، فقـال لـه : تغوَّط عليهـا ، فقـال لـه أبو سفيـان : ويحك ياعمر ، إنَّك رجل فاحش ، دعني مع ابن عمي ، فإياه أُكلِّم .

سفيان فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وماتسع داري ؟ فقال ﷺ : « ومن دخل الكعبة فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وماتسع الكعبة ؟ فقال ﷺ : « ومن دخل المسجد فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما يسع المسجد ؟ فقال ﷺ : « ومن دخل دار حكيم بن حزام[1] فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : هذه واسعة .

وعقد ﷺ لأبي رويحة[2] الذي آخى بينه وبين بلال ، وأمره أن ينادي من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن .

---

(١) أسلم بُدَيْل وحكيم بن حزام ، ومما قاله حكيم : يارسول الله ، أجئت بأوباش الناس ، ومن يُعْرَف ومن لا يُعْرَف إلى أهلك وعشيرتك ، فقال (ﷺ) : « هم أظلم وأفجر ، قد غدرتم بعقد الحديبية وتجاهرتم على بني كعب ـ يعني خزاعة ـ بالإثم والعدوان في حرم الله وأَمنه » ، فقال بُدَيْل ـ وهو خزاعي ـ : صدقت والله يارسول الله ، فقد غدروا بنا والله ، لو أن قريشاً خلُّوا بيننا وبين عدونا مانالوا الذي نالوا . فقال حكيم : كنت يارسول الله حقيقاً أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحماً ، وأشد عداوة ! فقال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن يجمعها لي ربي : فتح مكة وإعزاز الإسلام بها ، وهزيمة هوازن وأخذ أموالهم وذراريهم » .
وحكيم بن حزام من مسلمة الفتح ، كان عمره ستين سنة عند إسلامه ، وبقي في الإسلام مثل ذلك ، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام ، أعتق في الجاهلية مئة رقبة ، وفي الإسلام مثل ذلك ، فإنه حَجَّ في الإسلام وأوقف بعرفة مئة وصيف في أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها : « عتقاء الله عن حكيم بن حزام » ، وأهدى مئة بَدَنَة ، وأهدى ألف شاة . [السِّيرة الحلبية : جـ ٣ ص٩٣ ، السِّيرة النبوَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٠٦ و ٣٠٨] .

(٢) أبو رُوَيْحَة الفَزَعي ، أخو بلال بن رباح ، آخى رسول الله (ﷺ) بينهما ، روي عن أبي رويحة أنه قال : أتيت رسول الله (ﷺ) فعقد لي لواء وقال : « اخرج فناد : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن » ، ويقال اسمه : عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ، [أُسد الغابة : جـ ٦ ص ١١٥] .

ولما أراد أبو سفيان ـ ومن معه ـ أن ينصرف قال رسول الله ﷺ : ياعباس احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل[1] حتى تمرَّ به جنود الله فيراها .

« ياأبا سفيان إنَّها النُّبُوَّة » :

وعند مضيق الوادي ، حيث سير جيش الفتح ، وقف أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي مع العباس ، وظن أبو سفيان أن في حبسه عند مضيق الوادي غدراً به ، فقال : أغدر ؟ قال العباس : لا ، ولكن لي إليك حاجة حتى تنظر جنود الله ، وما أعدَّ اللهُ للمشركين ، وقال له : إن أهل النبوَّة لا يغدرون .

وأول من قدم باتجاه مكة خالد بن الوليد في بني سُلَيم ، وهم قرابة ألف مجاهد ، معهم لواءان يحملها العباس بن مرداس ، وخفاف بن ندبة ، فحين مرُّوا بأبي سفيان كبَّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ فقال العباس : خالد بن الوليد ومعه بنو سُلَيم ، قال : مالي ولبني سُلَيْم ؟!

---

(١) خَطْم الجبل : الخَطْمُ من كل دابة : مُقَدَّمُ أنفها وفمها ، وأصل الخَطْم في السباع مقاديم أنوفها وأفواهها ، لسان العرب : جـ ١٢ ص١٨٦ ، والمراد هنا المكان الذي يضيق به الوادي .

وعلى أثر خالد تقدَّم الزبير بن العوام في سبعمئة من المهاجرين فكبَّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان للعباس : من هؤلاء ؟ قال : الزبير بن العوام ، قال : ابن اختك ؟ قال العباس : نعم .

ثم مَرَّت كتيبة[1] بني غفار في أربعمئة مجاهد ، يحمل رايتهم أبو ذر رضي الله عنه ، فلما حاذوه كبَّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : يا عباس من هؤلاء ؟ قال العباس : غفار ، قال : مالي ولغفار ؟

ثم مَرَّت كتيبة أَسْلَم في أربعمئة ، فيها لواءان يحملها : بُرَيْدَة بن الحُصَيْب[2] ، ونَاجِيَة بن الأَعْجَم[3] ، فلما حاذوه كبَّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : أَسْلَم ، قال : مالي ولأَسْلَم .

ثم مَرَّت بنو كعب بن عمرو - وهم خزاعة - في خمسمئة ، يحمل رايتهم بشير بن سفيان ، فلما حاذوه كَبَّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان :

---

(١) الكتيبة هنا : القطعة من الجيش .

(٢) بُرَيدةُ بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأَسْلَمي ، أسلم حين مَرَّ به رسول الله (ﷺ) مهاجراً ، هو ومن معه ، وكانوا نحو ثمانين بيتاً ، قدم على رسول الله (ﷺ) بعد أُحُد ، فشهد معه مشاهده ، وشهد الحديبية وبيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكان من ساكني المدينة ، ثم تحوَّل إلى البصرة ، ثم خرج منها غازياً إلى خراسان ، فأقام بمرو حتى مات ، ودفن بها وبقي ولده بها . [أسد الغابة : جـ ١ ص ٢٠٩] .

(٣) ناجيَة بن الأَعْجَم الأسلمي : مات في المدينة في خلافة معاوية ، لاعقب له ، [أسد الغابة ، جـ ٥ ص ٢٩٤] .

من هؤلاء ؟ قال العباس : بنو كعب إخوة أَسْلَم ، قال أبو سفيان : هؤلاء حلفاء محمد ، قال العباس : نعم .

ثم مَرَّت مزينة فيها مئة فرس وثلاثة ألوية[1] يحملها النعمان وعبد بن عمرو بن عوف وبلال بن الحارث ، فلما حاذوه كَبَّروا ثلاثاً ، قال : من هؤلاء ؟ قال العباس : مزينة ، قال : مالي ولمزينة قد جاءتني تقعقع[2] من شواهقها .

ثم مَرَّت جُهَيْنَةُ في ثمانمئة فيها أربعة ألوية ، يحملها معبد بن خالد ، وسويد بن صخر ، ورافع بن مكيث ، وعبد الله بن بدر ، فلما حاذوه كَبَّروا ثلاثاً ، قال : من هؤلاء ؟ قال العباس : جُهَيْنَةُ ، قال : مالي ولجهينة ، والله ما كان بيني وبينهم حرب قط .

ثم مَرَّت كنانة بنو ليث وضَمْرَة وسعد بن بكر في مئتين ، يحمل لواءهم أبو واقد الليثي[3] ، فلما حاذوه كَبَّروا ثلاثاً ، قال : من هؤلاء ؟ قال العباس : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم ، والملاحظ أن عددهم قليل ، لأن القسم الأكبر من هذه

---

(١) كانت مُزَيْنَةَ ألفاً وثلاثة نفر .

(٢) القَعْقَعَةُ : صوت السِّلاح ، [مختار الصحاح : ص ٥٤٥] .

(٣) أبو واقد الحارث بن عَوْف الليثي ، أسلم قبل الفتح ، شهدا اليرموك ، ومات بمكة سنة ٦٨ وهو ابن خمس وسبعين ، [أُسد الغابة : جـ ٦ ص ٣٢٥] .

القبيلة كان مع قريش على شِرْكِه ، والذي سار في جيش الفتح من أسلم منهم فقط .

ثم مَرَّت أَشْجَع وهم ثلاثمئة ، معهم لواءان يحملهما مَعْقِل بن سِنَان[1] ونعيم بن مسعود الأشجعي[2] ، فكبَّروا ثلاثاً ، قال : من هؤلاء ؟ قال العباس : أَشْجَع ، قال : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمَّد ، فقال العباس : أدخل الله الإسلام في قلوبهم ، فهذا فضل الله .

ومَرَّت بنو تميم ، وبنو فزارة ، وسعد بن هذيم وهم من قضاعة ، فصنعوا مثل ذلك ، قال أبو سفيان : أَبَعْدُ ما مضى محمد ؟ فقال العباس : لو أتت الكتيبة التي محمَّد فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، قال أبو سفيان : ومن له بهؤلاء طاقة ؟! حتى أقبلت كتيبة لم يُرَ مثلها ، إذ في كل بطن منها لواء ، وهم في الحدّيد لا يُرَى منها إلا الحدق ، فيهم أَلف دارع . وفيهم رسول الله

---

(١) مَعْقِلُ بن سِنَان بن مُظهر الأشجعي ، شهد فتح مكة ، ثم أتى المدينة فأقام بها ، وكان فاضلاً تقياً ، وكان ممن خلع يزيد بن معاوية مع أهل المدينة ، فقتله مسلم بن عقبة المُرّي لما ظفر بأهل المدينة يوم الحَرَّة صَبْراً ، [أُسد الغابة : جـ ٥ ص ٢٣٠] .

(٢) نُعَيم بن مسعود بن عامر بن أُنَيْف الغطفاني الأشجعي (أبو سلمة) ، أسلم في وقعة الخندق ، وهو الذي أوقع الخلف بين قريظة وغطفان وقريش يوم الخندق ، وخذَّل بعضهم عن بعض ، وله قال (ﷺ) : « خَذِّل مااستطعت فإن الحربَ خُدْعَة » ، مات نُعَيم في زمن عثمان ، وقيل قتل يوم الجمل قبل قدوم علي رضي الله عنه البصرة مع مجاشع بن مسعود الأسلمي وحكيم بن جَبَلَة العَبْدِيّ ، [أُسد الغابة : جـ ٥ ص ٣٤٨] .

ﷺ ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقال : يا أبا سفيان ، إنَّها النبوَّة ، فقال أبو سفيان : فنعم إذن[1] .

لقد رفض العباس ذكر المُلْك مجرَّداً من النبوَّة ، وإلا فجائز أن يسمَّى مثل هذا مُلْكاً وإن كان لنبيّ ، فقد قال تعالى في داود : ﴿ وشددنا ملكه ﴾[2] ، وقال سليمان : ﴿ وهب لي مُلْكاً ﴾[3] ، غير أن الكراهية أظهر في تسمية حال النبي ﷺ ملكاً لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ خُيِّر بين أن يكون نبيّاً عبداً ، أو نبيّاً مَلِكاً ، فقال : « بل نبيّاً عبداً ، أشبع يوماً وأجوع يوماً »[4] .

ولما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال :

اليومُ يوم المَلْحَمَهْ اليوم تُستَحَلُّ الحُرمَهْ[5]

---

(١) ورأي بعضهم ، أن المراد من « فنعم إذن » الهزء وعدم الإقرار بالنبوَّة ، كقولهم اليوم « هذا قولك » ، ولأصحاب هذا الرأي ما يبرّر لهم رأيهم ، فإيمان أبي سفيان بن حرب احتاج إلى أكثر من معجزة ، سنراها بعد الفتح .

(٢) سورة ص : ٣٨ / ٢٠ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتيناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ .

(٣) سورة ص : ٣٥/٣٨ : ﴿ قال رَبِّ ٱغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لاَ يَنْبَغي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدي * إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ ﴾ .

(٤) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٣ ، الروض الأُنُف : جـ ٤ ص ٩٩ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٣ .

(٥) الأبيات في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٠/أ ، والسِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥٠ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٠ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٦ ، ابن =

أي اليوم يوم الحرب ، لا يوجد منه مخلص ، وتستحل الكعبة ، أي يقتل من اهدر دمه ، فوصية رسول الله ﷺ واضحة جليَّة : « ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم » .

فقال أبو سفيان : ياعباس ، حبذا يوم الذِّمار ، أي حبذا يوم الهلاك ، تمنى أبو سفيان أن تكون له يد وقوة فيحمي قومه ، ويدفع عنهم ، وقيل هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليه ، قال ذلك غلبة وعجزاً ، وقيل المعنى هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي لقربك من رسول الله ﷺ .

ولما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان ، قال له : إني لأرى وجوهاً كثيرة لا أعرفها ، لقد كثرت هذه الوجوه عليّ ! فقال له ﷺ : « أنت فعلت هذا وقومُك ، إن هؤلاء صدّقوني إذ كذّبتموني ، ونصروني إذ أخرجتموني » .

ثم شكا أبو سفيان لرسول الله ﷺ سعد بن عبادة ، ووقفت امرأة واعترضت مسيرة الكتيبة الخضراء ، وأنشأت تقول[1] :

يا نبيَّ الهُدَى إليكَ لَجَا حـ ... ـيٌّ قريشٍ ولاتَ حينَ لَجَاء
حين ضاقت عليهم سِعَةُ الأر ... ضِ وعاداهم إلهُ السَّماء

= خلدون : جـ ٢ ص ٤٣ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٦ ، والأبيات كما في : عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٢ ، والروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٠١ لضرار بن الخطاب .

(١) نورد هنا رواية عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٢ .

والتقتْ حَلَقَتا البطانِ على القو ... مِ وَنُودوا بالصيلم الصلعاء[1]

إنَّ سَعْداً يُرِيدُ قاصِمَةَ الظَهْـ ... ـرِ بأهلِ الحَجُون والبَطْحَاء[2]

خَزْرَجِيٌّ لَوْ يستطيعُ من الغَيْـ ... ـظِ رَمَانا بالنسرِ والعواء[3]

وغر الصدر[4] لا يهم بشيءٍ ... غير سفك الدما وسبي النِّساء

قَدْ تلظَّى[5] على البطاحِ وجاءت ... عنه هند بالسوءَةِ السوآء

إذ يُنَادِي بِذُلِ حيّ قريش ... وابن حرب بذا من الشُّهداء

فَلَئِن أَقْحَمَ اللواءَ ونادى ... يا حماةَ اللواء أَهْلَ اللواء

ثُمَّ ثابت[6] إليه من بهم الخز ... رج والأوس أنجم الهيجاء

لتكونن بالبطاح قريش ... فقعة القاع[7] في أكفِّ الإمَاء

فانْهَيَنْهُ فإنَّهُ أَسَدُ الأُسْـ ... ـد لدى الغابِ والغ[8] في الدماء

---

(١) الصيلم : الداهية ، والصلعاء : المشهور .

(٢) الحَجُون والبَطْحاء ، الحَجون : جبل بأعلى مكة ، قال السُّهَيْلي : على فرسخ وثلث ، معجم البلدان : جـ ١ ص ٢٢٥ ، البَطْحاء : كل موضع متسع ، ومنها بطحاء مكة وأبطحها ، معجم البلدان : جـ ١ ص ٤٤٦ .

(٣) العواء : الكلب .

(٤) وغر : الوَغْرَةُ : شِدَّة توقُّد الحر ، والوَغْرُ : احتراق الغيظ ، والمعنى هنا : امتلأ غيظاً وحقداً ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٨٦ .

(٥) اللَّظى : النار ، وقيل اللهب الخالص ، لسان العرب : جـ ١٥ ص ٢٨٤ .

(٦) ثاب : رجع ، وثاب الناس : اجتمعوا وجاؤوا ، مختار الصحاح : ص ٨٩ .

(٧) القاع : الأرض المنبسطة السَّهلة .

(٨) وَلَغَ الكَلْبُ في الإناء يَلَغُ وُلُوغاً ، أي شرب بأطراف لِسَانه ، مختار الصحاح : ص ٧٣٥ .

إنـــه مطرق يُـــدِيرُ لنـــا الأمـ ـرَ سكـــوتـــاً كالحيَّـــةِ الصمَّـــاء[1]

فلمَّا سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر ، دخله رحمة لهم ، ورأفة بهم ، وأمر بالراية فأُخذت من سعد بن عبادة[2] ودُفعت إلى ابنه قيس بن سعد ، ورسول الله ﷺ بذلك لم يخيِّب من استغاث به ، ولم يُغْضِب سعداً ، فأخذ الرايةَ منه فدفعها إلى ابنه وقال : « بل هذا يومٌ يعظِّم الله فيه الكعبة ، ويوم تُكْسَىٰ فيه الكعبة » .

وعندها قال العباس لأبي سفيان بن حرب : النَّجاءَ إلى قومك .

☆ ☆ ☆

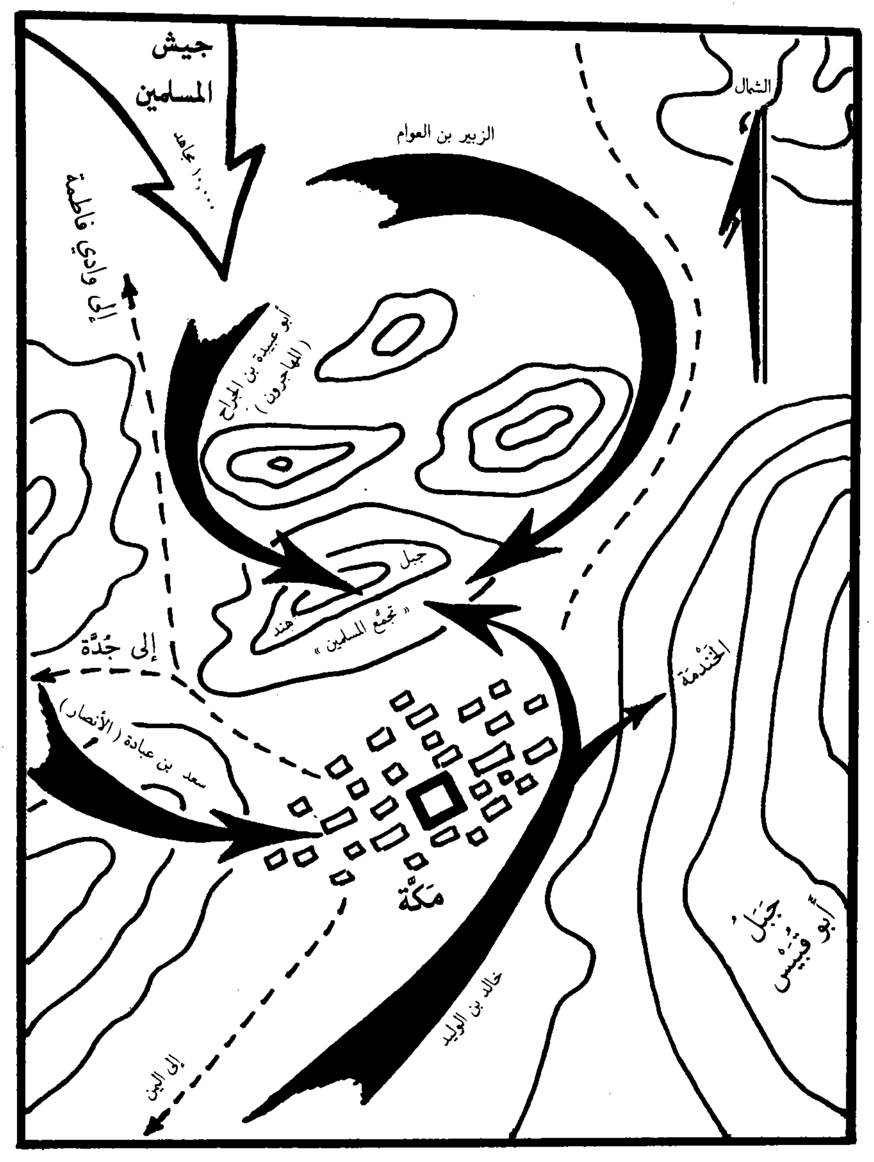
خطَّة الفتح الأَعظم :

وعلى الرغم من كل ما جرى ، وإسلام أبي سفيان وكبار وجهاء مكة ، وعلى الرغم مِنْ « مَنْ دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ، دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وكأن القتال متوقَّعٌ محتملٌ ، لقد كان جيش الفتح متحسِّباً لكل مفاجأة . وهذا يدل على يقظة وحساب الأمور بميزان دقيق ، فلا عشوائيَّة ولا تواكليَّة ، لقد طُوِّقت مكَّة من كل جهاتها بجيش الفتح ، وذلك على النحو التالي :

---

(١) الصَّمّاء : الداهية ، وإذا قلت : اشتمل فلان الصَّمَّاء كأنك قلت اشتمل الشَّملة التي تُعْرَف بهذا الاسم ، لأن الصَّمّاء ضرب من الاشتمال ، مختار الصحاح : ص ٣٧٠ .

(٢) وأبى سعد أن يسلِّم الإمارة إلا بأمارة من رسول الله ﷺ ، فأرسل ﷺ إليه بعمامته ، فدفع اللواء لابنه قيس رضي الله عنهما .



فتح مكة « الفتح الأعظم »

٢٠ رمضان ٨ هـ / ٦٣٠ م

١ - دخلت الميسرة بقيادة الزبير بن العوام من شمال مكة .

٢ - ودخلت الميمنة بقيادة خالد بن الوليد من جنوب مكة .

٣ - ودخلت كتيبة سعد بن عبادة[1] من غرب مكة .

٤ - ودخلت كتيبة أبي عبيدة بن الجراح من الشمال الغربي قُبَالة جبل هند .

وكانت أوامر رسول الله ﷺ ، أن جبل هند منطقة تجمُّع بعد تمام الفتح .

وسأل أُسامة بن زيد : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ فقال ﷺ : « وهل ترك لنا عَقِيلٌ من رباع[2] ؟ » ، ثم قال : « لا يَرِثُ الكافِرُ المؤمنَ ولا المؤمن الكافر ، منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتح الله بخيف[3] بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر[4] » .

« اقتُلُوهم وَإنْ وَجَدْتُمُوهُم مُتَعلِّقينَ بَأَسْتَارِ الكَعْبَةِ » :

وأمر ﷺ أُمراءه ألاّ يقاتلوا إلا من قاتلهم ، غير أنه ﷺ أَهْدَر دَمَ

---

(١) والتي يحمل لواءها ابنه قيس بن سعد بن عبادة .

(٢) الرَّبْعُ : المنزل والدار بعينها ، وجمعه أَرْبَع ورِباع ورُبُوع وأَرْباع ، لسان العرب : جـ ٨ ص ١٠٢ .

(٣) الخَيْف : ماارتفع عن موضع مجرى السَّيل ، ومسيل الماء وانحدر عن غِلَظِ الجبل ، وخَيْف بني كنانة : يعني المُحَصَّب ، لسان العرب : جـ ٩ ص ١٠٢ و ١٠٣ .

(٤) الاكتفاء جـ ١ ص ١٤٠/أ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٦ .

نفر سمّاهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة ، قال ﷺ : « اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة »[1] ، وهم :

عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، الذي كان قد أسلم وكتب الوحي ، ثم ارتدَّ .

وعبد الله بن خَطَل ، رجل من بني تميم بن غالب ، أسلم فبعثه رسول الله ﷺ جابي صدقات ، وبعث معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له ، فغضب عليه غضبة فقتله ، ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان (فَرْتنى وصاحبتها) ، فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين ، ولهذا أُهْدِرَ دمه ودمُ قينتيه .

والحويرث بن نُقَيذ[2] بن وهب بن عبد قصيّ ، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ بمكّة ، ولما تحمَّل العباس بفاطمة وأُم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة يُلحقهما برسول الله ﷺ أوَّل الهجرة ، نخس[3] بهما الحويرث الجَمَلَ الذي هما عليه ، فسقطتا إلى الأرض .

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٠/أ ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٣ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٨ و ٣٩ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) وورد اسمه نُقَيد ، ونفيل كما في السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة ، والسيرة الحلبية ، وهو الحويرث بن نفيل في ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٤ .

(٣) نَخَسَ الدَّابَّةَ وغيرها يَنْخَسُها نَخْساً : غرزَ جنبها أو مؤخّرها بعود أو بغيره ، لسان العرب : جـ ٦ ص ٢٢٨ .

ومِقْيَس بن صُبَابة ، لأنَّه قتل قاتل أخيه خطأ بعدما أخذ الديَّة ، ثم ارتد مشركاً وعاد إلى مكة ، ومما قاله :

حَلَلْتُ بِـهِ وِتْري وأدركتُ ثُؤْرَتي ... وَكنتُ إلى الأَوْثـانِ أَوَّلَ رَاجِـعِ[1]

وسـارة مـولاة لبني عبـد المطلب ولعكرمـة بن أبي جهـل ، وهي مُغَنِّية كانت تؤذي رسول الله ﷺ وهي بمكَّة ، ثم جاءت المدينة وادَّعت الإسلام ، وطلبت الميرة[2] ، فأمر لهـا ﷺ بعيراً طعـامـاً ، فرجعت إلى قريش ـ وهي التي حملت رسـالـة حـاطب ـ وارتــدت عن الإسـلام ، وكان ابن خطل يلقي عليها هجاءَ رسول الله ﷺ فتغني به .

وعكرمة بن أبي جهل ، لأنـه كان أشـد النـاس ـ هو وأبوه ـ أذِيَّـة لرسول الله ﷺ ، وكان أشدَّ الناس على المسلمين .

وهبـار بن الأسود ، لأنـه عرض لـزينب بنت رسـول الله ﷺ في سفهاء من قريش حيث بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة ، فأهوى إليهـا هبـار ونخس بعيرهـا ، وضربهـا برمح فسقطت من على الجمل على صخرة ، وكانت حاملاً ، فألقت مـافي بطنهـا ، واهراقت الـدمـاء ، ولم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت .

وكعب بن زهير ، الـذي كان يهجو رسول الله ﷺ ، وصـار يُعَيِّر

---

(١) راجع « صلح الحديبية » من هذه السلسلة ، ص ٣٢ ، حيث قصة مِقْيس كاملة .

(٢) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان جمعها مِيَر .

أخـاه بُجَيراً حين أسلم ، وسبب إسلام بجير أن أبـاهمـا زهيراً كان يجـالس أهل الكتاب ، فسمع أنه قـد قَرُبَ مبعث نبيٍّ آخر الزمـان ، ورأى زهير في منامه أن قد مُدَّ حبلٌ من السماء ، وأَنَّه مدَّ يده ليتناوله ففاته ، فأَوَّل ذلك بالنبي الذي يُبْعَثُ في آخر الزمان أَنَّه لا يدركه ، وأخبر بنيه بذلك المنـام ، وبمـا سمعـه من أهـل الكتـاب وأمرهم وأوصـاهم إن أدركـوه أن يُسْلِمُوا[1] ، فجاء بجير المدينة فسمع من رسول الله ﷺ وآمن به .

ومن أُهدر دمه : هند بنت عتبة لأنَّها مثَّلت بالحمزة رضي الله عنـه يـوم أُحُـد ولاكت كبـده ، ووحشي بن حرب ، قـاتـل الحمـزة ، والحارث بن هشام ، وزهير بن أبي أُميَّة ، وصفوان بن أُميَّة .

☆ ☆ ☆



(١) أي يؤمنوا ويتَّبعوا نبيَّ آخر الزمان .

أُذهلت المفاجأةُ قريشاً

وأيقنت أنها كانت تضرب في حديد بارد

*** « يـامعشرَ قريش ، هـذا محمّـد قـد جـاءكم فيما لاقِبَلَ لكم بـه ، فمن أغلق عليـه بـابـه فهـو آمن ، ومن دخـل المسجد فهو آمن » .**

أبو سفيان بن حرب .

لقد رأى أبو سفيان بن حرب جيش الفتح عنـد خطم الجبل ، فبهر ودهش لما رأىٰ ؛ لقد رأى :

١ ـ يقظة المسلمين في عيونهم الجوَّالة المتنقِّلة على ظهور جيـادهـا ، ترقب كل تحرُّك من حولها ، وترصـد كل غريب عنهـا يحـاول الاقتراب منها .

٢ ـ ورأى أبـو سفيـان طـاعــة المسلمين وحبَّهم لرسـول الله ﷺ : « ياعبَّاس ، مـا يـأمرهم بشيء إلاَّ فعلوه ؟ مـا رأيت كالليلـة ولا ملـك كسرى وقيصر » .

٣ً ـ ورأى قـوة المسلمين في كتـائبهم المتحفـزة المُصَمِّمـة على إنهـاء الوثنيَّة في جزيرة العرب ، ورفع راية التوحيـد فوق الكعبـة المشرَّفـة ، رمزاً لوحدة عقيدة العرب : « والله يـا أبـا الفضل لقـد أصبح مُلْـك ابن أخيكَ الغداة عظيماً » .

٤ً ـ وبعد أن جعل لـه شيئـاً يُشْبِعُ مـا في نفسـه من زعـامـة وفخر وتبـاهٍ : « ومن دخل دار أبي سفيـان فهو آمن » ، فجعلـه ﷺ بـذلـك ملجأ تُحْمى في داره الأرواح .

٥ً ـ وفوق هذا كلـه ، أيقن أبو سفيـان أن رسول الله ﷺ لا بُـدَّ أن يدخل مكـة ، ولكن لا لِتُسْتَحل وتستبـاح ، بل اليوم « يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » .

ودخل أبو سفيـان الكعبـة وهو يصيـح بـأعلى صـوتـه : يـا معشر قريش ، هـذا محمـد قـد جـاءكم فيما لا قِبَـل لكم بـه[1] ، فمن دخـل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تُغْني عنّا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ..

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٩/ب ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٠ ، السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ٩٤ ، السّيرة النبـويَّـة والآثـار المحمـديَّـة : جـ ٢ ص ٣٠٧ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٩٩ .

فقامت إليه زوجه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميتَ الدَّسِمَ الأَحْمس[1] ، قُبِّح من طليعة قوم ، اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلاّ قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟!

فقال أبو سفيان : ويلكم لا تَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم مالا قِبَلَ لكم به ، من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرَّقَ الناسُ إلى دورهم وإلى المسجد .

ومن الملاحظ أن قريشاً لم تسأل عن سبب مجيء جيش الفتح ، لم يتساءل امرءٌ عن سبب الفتح ، ومردُّ ذلك معرفتهم بما جرى ، واطلاعهم بما عملوه بخزاعة خارقين بنود الصلح ، وبخاصة عندما التجأت خزاعة إلى الكعبة ، فقتل عدد منها في المسجد الحرام ، دون أن تأخذ قريش بهم رحمة ولا إلاًّ .

☆ ☆ ☆

---

(١) الحَميتُ : وعاء السَّمْن ، كالعُكَّة ، الزِّقُّ الصغير ، وهي تريد هنا استعظاماً لقوله ، لسان العرب : جـ ٢ ص ٢٥ ، والدَّسِم : السَّمين كثير اللحم ، وأَحْمَسُ : الذي لا خير عنده ، من قولهم : عام أَحْمَسُ وسَنَة حَمْساء : شديدة « إذا لم يكن فيها مطر » .

« وَاللهِ ماأَرَىٰ يَقُومُ لمحمَّدٍ وَأَصحابِهِ شَيْءٌ » :

وجمع صفوان بن أُميَّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أُناساً بالخَنْدَمة[1] لِيُقَاتِلُوا .

وأَعدَّ حِمَاس بن قيس بن خالد ـ أخو بني بكر ـ سلاحاً وأصلحه ، فقالت له أمرأته ـ وكانت قد أسلمت سِرّاً ـ : لماذا تُعِدُّ ماأرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، فقالت : والله ماأرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، والله كأني بك وقد رجعت تطلب مخبأ أُخبئك فيه لو رأيت خيل محمد !

قال : والله إني لأرجو أن أُخْدِمك بعضَهم ، ثم قال :

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فما لي عِلَّهْ   هذا سِلَاحٌ كامِلٌ وأَلَّهْ[2]
وَذُو غِرارَيْن سَريعُ السَّلَّهْ[3]

ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوَشُوهم[4] شيئاً من قتال ، فقُتِل كرز بن جابر أحد

---

(١) الخَنْدَمة : جبل بمكة ، (معجم البلدان : جـ ٢ ص ٣٩٢) .
(٢) وألَّهْ : جميع أداة الحرب .
(٣) الغرار : حد الرمح والسيف والسهم .
(٤) التَّناوُشُ : التنازل ، والقتال ، (لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٦١) .

بني محارب بن فهر ، وحبيش[1] بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليف بني منقذ ، وكانا في جيش خالد ، فشذًّا عنه فسلكا غير طريقه فَقُتِلا ، وكان قَتْلُ حبيش قبل كرز ، فجعله كرز بين رجليه ، ثم قاتل عنه حتى قُتِلَ وهو يرتجز :

قد علمت صفراء من بني فَهِرْ[2] نقيَّة الوجه نقيَّة الصدِرْ

لأضربن اليومِ عن أبي صَخِرْ[3]

وقُتِل من خيل خالد أيضاً سلمة بن الميلاء الجهني ، وأُصيب من المشركين قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر ، ثم انهزم المشركون ، فخرج حِمَاس بن قيس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقي عليَّ بابي ، ويحكم هل من مخباة[4] ؟ فقالت زوجه : فأين ماكنت تقول ؟ (وقالت تسخر منه) أين الخادم الذي كنت قد وعدتني ؟ فقال :

---

(١) وهو في الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٢ ، وفي السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٢ « حبيش » ، وفي عيون الأثر ، جـ ٢ ص ١٨٣ ، وفي ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٧ « خنيس » ، وصوَّب السُّهيلي في الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٠١ « حبيشاً » .

(٢) فَهِرْ : بكسر الهاء ، هذا على مذهب العرب في الوقوف على ماأوسطه ساكن ، فإن منهم من ينقل حركة لام الفعل إلى عين الفعل في الوقف ، وذلك إذا كان الاسم مرفوعاً أو مخفوضاً ، (راجع ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٧) .

(٣) أبو صخر : كنية حُبيش بن خالد بن ربيعة .

(٤) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٦ .

إنَّـكِ لَـو شَهِـدْتِ يَـوْمَ الخَنْـدَمَـه ... إذْ فَرَّ صَفْـوانُ وَفَرَّ عِكْرِمَـه

وَأَبُـو يـزيـدَ قـائِمٌ كالمُؤْتِمَـه[1] ... واستَقْبَلَتْهُم بـالسّيـوفِ المُسْلِمَـه

يَقْطَعن كُـلَّ سَاعِـدٍ وجُمْجُمَـه ... ضَرْبـاً فَـلاَ يُسْمَـعُ إلاَّ غَمْغَمَـه[2]

لهم نَهِيتٌ[3] خَلْفَنـا وَهَمْهَمَـه[4] ... لَمْ تَنْطقي في اللَّومِ أَدْنَىٰ كَلِمَه[5]

وقيل لرسول الله ﷺ : هذا خالد بن الوليد يَقْتُل .

وخالد قوتل وبُدِئ بـالقتـال ، فلم يكن لـه بُـدٌّ من أن يقـاتل من يقاتله ، رموه بالنبل ، وناوشوه بالسيوف عند الخندمة .

فقال ﷺ : « قم يافلان ، فَأْتِ خـالـدَ بن الوليـد فقل لـه فليرفع يديه من القتل » ، فأتاه الرجل فقال : إن النبي ﷺ يقول : اقتل مَنْ قـدرتَ عليـه ، فقتل خـالـد أربعـة وعشرين من قريش ، وأربعـة من

---

(۱) أبو يـزيـد : يريـد سهيـل بن عمرو وكان خطيب قريش ، والمؤتمة : الأيم التي مات عنها زوجها ، (الروض الأنف : جـ ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) غمغمة : الصوت الذي لا يُفْهَم .

(٣) النَّهِيتُ : صوتَ الأسد دون الزئير ، لسان العرب : جـ ٢ ص ١٠١ .

(٤) الهمهمة : الصوت في الصدر .

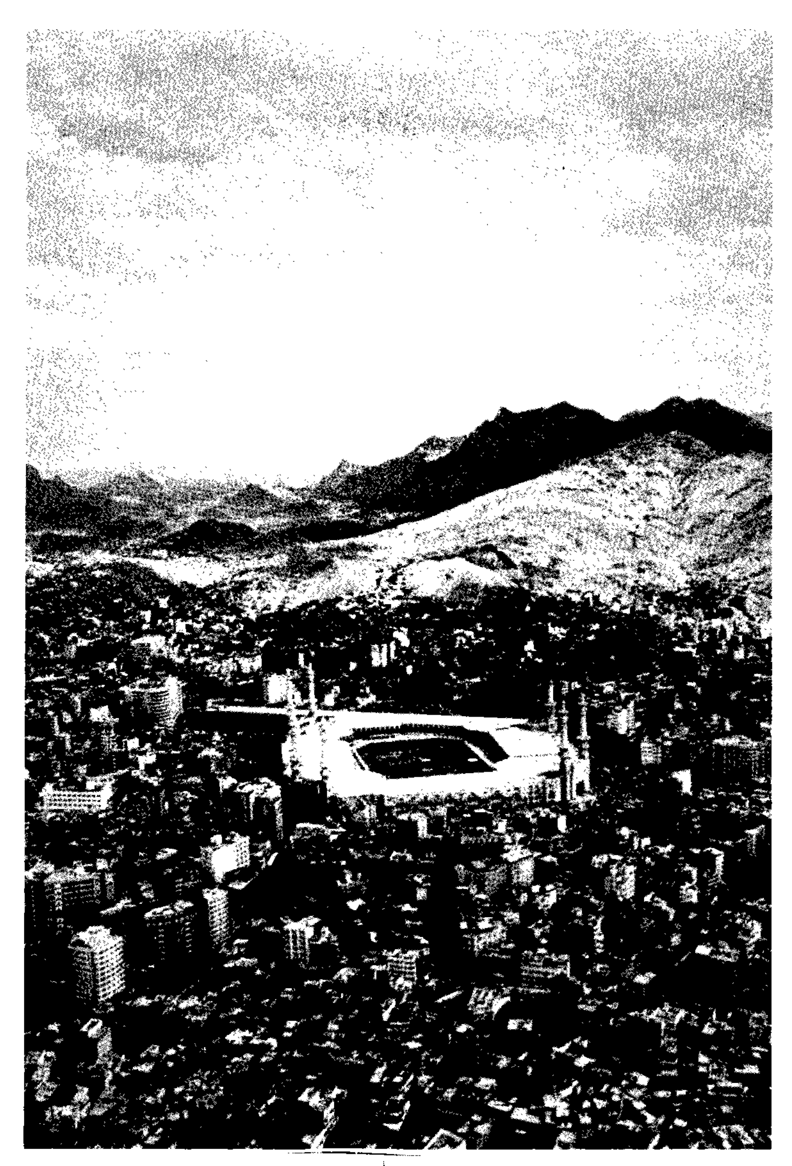
(٥) الأبيـات في : الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤٠/ب ، السِّيرة النبـويَّـة : جـ ٣ ص ٥٦٢ ، السِّيرة الحلبيَّـة : جـ ٣ ص ٩٦ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٦٧ ، الطبري جـ ٣ ص ٥٨ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٢٩٧ ، معجم البلـدان : جـ ٢ ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٣ .

هذيل[1] ، فأتى رجل فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأرسل إلى خالد فقال : « ألَم أنهك عن القتل ؟ » ، فقال : جاءني فلان فأمرني أن أقتل من قدرت عليه ، فأرسل إليه وقال : « ألم آمرك ؟ » ، قال الرجل : أردتَ أمراً وأراد الله أمراً ، فكان أمر الله فوق أمرك ، وما استطعت إلاّ الذي كان ، فسكت ﷺ فما رَدَّ عليه شيئاً .

ونرى أن في هذه الرواية نظراً وضعفاً ، ونرجح الرواية التالية لقبول المنطق وسير الأحداث لها ، لأن رسول الله نهى قبل دخول مكة عن القتال : سأل رسول الله ﷺ خالداً : « لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟ » ، قال خالد : هم يا رسول الله بدؤونا بالقتال ، ورمونا بالنبل ، ووضعوا السِّلاح ، وقد كففت ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا حتى إذا لم أجد بداً من أن أقاتلهم ، فظفرنا الله بهم ، فهربوا من كل وجه . ويؤيد هذه الرواية خروج حِمَاس بن قيس وصفوان وعكرمة وسهيل بجمع إلى الخندمة ليقاتلوا ، فقاتلهم خالد رضي الله عنه .



(١) تذكر هذه الرواية أن خالداً قتل سبعين إنساناً ، (السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٣) .



مكة المكرمة

المهاجر فاتحاً

« ٢٠ رمضان المبارك ٨ هـ »

*** عن ابن مسعود ، أن رَجُلاً كَلَّم رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فأخذته الرِّعْدَة[١] ، فقال ﷺ : « هَوِّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد[٢] » .**

ودخل رسول الله ﷺ مكة ، وعلى رأسه المِغْفَر[٣] ، ولم يكن مُحْرِماً[٤] .

ودخل مكة وعليه عمامة سوداء : « كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ

---

(١) الرِّعْدَةُ : النافض يكون من الفزع وغيره ، لسان العرب : جـ ٣ ص ١٧٩ .

(٢) القديد : اللحم المُقَدَّد ، اللحم المَمْلُوح المجفَّف في الشمس ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) كل شيء سترته فقد غَفَرْته ، ومنه قيل للذي تحت بيضة الحديد « الخوذة » على الرأس : مِغْفَرٌ ، لسان العرب ، جـ ٥ ص ٢٥ .

(٤) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٩/ب ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٣ ، البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ٢٩٢ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٦ .

يوم فتح مكة ، وعليه عمامةٌ حَرْقـانيَّـة[1] سوداء قـد أرخى طرفهـا بين كتفيه[2] » .

ولـواءه ﷺ يـوم دخـل مكـة أبيض ، ورايتـه سـوداء تسمَّى العُقَـاب ، وكانت قطعـة من مِرْط مُرجَّل[3] . ودخـل مكـة على نـاقتـه القصواء مردفاً أسامة بن زيد ، وهذا من مزيد تواضعـه وكريم أخلاقـه ﷺ ، حيث أردف في هذا الموكب العظيم خادمه وابن خادمه رضي الله عنهما .

ودخل رسول ﷺ وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّع[4] .

ولما انتهى إلى ذي طُوَى وقف على راحلته معتجراً بشقَّـة بُرْد حِبَرة حمراء[5] ، وإن رسـول الله ﷺ ليضـع رأسـه تـواضعـاً لله حين رأى

---

(١) حَرْقانية : على لون ماأحرقته النار .

(٢) الحديث رواه مسلم من حديث أبي أسامة عن مساور الوراق ، عن جعفر بن عمرو بن حُرَيث عن أبيه .

(٣) المرط كساء من الصوف ، والمرجّل : الذي فيه صور الرجال ، وتروى مرحَّل بـالحـاء أي فيـه صور الرحال ، (السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥٥) .

(٤) رَجَّع الرجلُ وتَرجَّع : ردَّد صوتـه في قراءة ، وترجيـع الصـوت : ترديـده في الحلـق ، لسـان العرب : جـ ٨ ص ١١٥ .

(٥) ثـوب حَبيرٌ : جـديـد نـاعم ، والحِبَرَةُ والحَبَرَةُ : ضَرْب من برود اليمن مُنَمَّر ، لسـان العرب : جـ ٤ ص ١٥٩ .

ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عُثْنُونه[1] ليكاد يمسُّ واسطة الرَّحْل .

قال أنس : دخل رسول الله مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشِّعاً .

لقد وضع ﷺ رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى ، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى مكة ، وكثرة المسلمين ، ثم قال : « اللّهم إن العيش عيش الآخرة » . وهنا تتجلى العظمة ، التي تفتقد عند التكبُّر والتعالي والعُجْب ، وترى في القدوة عن إتيان الأعمال العظيمة الجليلة الطيبة التي يرافقها التواضع والتذلل لله ، ومع المحبَّة والبساطة .

وعن ابن مسعود أن رجلاً كَلَّم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرِّعْدَة ، فقال ﷺ : « هَوِّن عليك فإنَّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد » ، وهذا التواضع في هذا الموطن ، ورسول الله ﷺ في مثل جيش الفتح ، وبعد أن هُجِّر ولوحق ، وبعد أُحُد والأحزاب ، لا مثيل له في تاريخ الفاتحين .

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة ، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل ، فتبسَّم إلى أبي بكر الصديق وقال : « يا أبا بكر ، كيف قال حسَّان ؟ » . فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

---

(١) العُثْنُون من اللحية : ما نبت على الذَّقن وتحته سِفْلاً ، وقيل : هو كل ما فَضَل من اللحية بعد العارضين من باطنها ، لسان العرب : جـ ١٣ ص ٢٧٦ .

عَـدِمْتُ بُنَيَّتي إن لم تَرَوْهـا   تُثيرُ النَّقْعَ من كتفي كَدَاء[1]
يُنَـازِعنَ الأَعِنَّـةَ مُسْرجـاتٍ   يُلَطِّمهن[2] بـالخُمر النسـاء

فقال رسول الله ﷺ : « ادخلوها من حيث قال حَسَّان » .

أبو قُحَافة « عثمان بن عامر » :

ولما وقف ﷺ بذي طوى ، قال أبو قحـافـة[3] لابنـة لـه من أصغر ولـده : أي بُنيَّـة ، اظْهَري بي على أبي قُبَيْس ـ وقـد كُفَّ بصره ـ فأشرفت به عليه ، فقال : أي بنية ، ماذا ترين ؟ فقـالت : أرى سواداً مجتمعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يـدي ذلـك السَّوَاد مُقْبِلاً ومدبراً ، قال : أي بنية ، ذلك الوازع[4] ، ثم قـالت : قـد والله انتشر السَّواد ، فقـال : قـد والله إذاً دفعت الخيـل فـأسرعي بي إلى بيتي .

---

(١) في البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٤ : « من كنفي » ، وكَدَاء : بـأعلى مكـة عنـد المحصّب دار النبي ﷺ من ذي طُوى إليها ، معجم البلدان : جـ ٤ ص ٤٣٩ .

(٢) في البداية والنهايـة : جـ ٤ ص ٢٩٤ « يُطَلِّمُهُنَّ » ، والأبيـات في السِّيرة النبويَّـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥٧ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة ، جـ ٢ ص ٣١١ .

(٣) أبو قُحَافة : عثمان بن عامر ، أُمُّه : قيلة بنت أداة ، وهو أبو أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه .

(٤) الـوازِعُ في الحرب : المُـوَكَّـلُ بـالصفـوف يَـزَعُ من تقـدَّم منهم بغير أمره ، لسـان العرب : جـ ٨ ص ٣٩٠ .

فانحطَّت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيتـه ، وكان في عنق الجارية طوق من وَرِق[1] ، فلقيها رجل فاقتطعه من عنقها .

فلمـا دخل رسول الله ﷺ مكـة ، ودخـل المسجـد ، أتى أبـو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيـه ؟! » ، قـال أبو بكر : يـا رسول الله ، هو أَحَقُّ أن يمشي إليـك من أن تمشي أنت إليـه . فـأجلسـه ﷺ بين يـديـه ، ثم مسح صدره ، ثم قال : « أَسْلِم » ، فأسلم ، فهنّأ رسول الله ﷺ أبـا بكر بإسلام أبيه[2] .

وقوله ﷺ لأبي بكر : « هَلاَّ تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنـا آتيه فيه ؟! » تكرمة لأبي بكر ، ولا يعرف في الصحابة ـ من الذكور ـ أربعة أسلموا وصحبوا رسول الله ﷺ ، وكل واحد أبو الذي بعـده إلا في بيت أبي بكر : أبو قحافـة وابنـه أبو بكر وابنـه عبـد الرحمن وابن عبـد الرحمن : محمد ويكنّى بأبي عتيق ، ويصدق هذا على أبي قحـافـة وابنـه أبي بكر وبنته أسماء[3] وابنها عبد الله بن الزبير .

---

(١) الوَرِقُ : الفضَّة ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٣٧٥ .

(٢) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٥٨ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٠٢ .

(٣) إلاَّ أن أسماء هنا أُنثى ، وهي زوج الزبير بن العوام رضي الله عنهما .

ولما أسلم أبو قحافة رأى رسول الله ﷺ رأسه كأنه الثَّغامة[1] بياضاً ، فقال ﷺ : « غَيِّروا هذا من شعره ، غَيِّروه ولا تُقَرِّبوا سَواداً » . وهذا على الندب لا على الوجوب[2] ، فالشَّعر في مثل هذه الحالة يُرَجَّل ويخضب بغير لون السَّوَاد .

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أُخته وقال : أنشدُ الله والإسلامَ طوقَ أُختي ؟! فلم يجبه أحد ، فقال لها : أي أُخَيَّة ، احتسبي طوقك ، فوالله إن الأمانةَ في الناس اليوم لقليل .

لقد سأل أبو بكر عن طوق أخته ، ولم يجب أحد ، لعل الذي أخذه لم يكن بينهم ، والأمانة اليوم قليل لدخول الحابل بالنابل ، ففي مكة يوم الفتح جموع جاءت لعُمْرَةَ ، أو لتجارة .. وخَصَّص أبو بكر ذلك اليوم على التعيين ، لأن الجيش فيه كثرة ، ولا يكاد أحد يَلْوي على أحد ، مع انتشار الناس ، ولعل الذي أخذه ممن خرج لمقاومة جيش الفتح ، أما أخلاق المسلم فتأبى مثل هذا .



(1) الثَّغَام : من نبات الجبال ، وأشد ما يكون بياضاً إذا أمحل ، وفي لسان العرب : جـ ١٢ ص ٧٨ : [وهو ينبت بنجد وتِهامة ، الثَّغَامةُ : نبات ذو ساقٍ جُمَّاحَته مثل هامة الشَّيخ] ثم ذكر « اللِّسان » خبر أبي قحافة .

(2) راجع ابن هشام : جـ ٤ ص ٣٥ ، فبعض الأحاديث تنصُّ على أن رسول الله ﷺ ماخضب .

مَصيرُ مَنْ أُهْدِرَ دَمُهُ :

عبـد الله بن سعـد بن أبي سَرْح : فرَّ إلى عثمان بن عفـان ـ وكان أخاه من الرَّضاعة ـ جاء به لِيَسْتَأمن له ، وقـال : يـا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع ﷺ رأسه فنظر إليـه ثلاثـاً ، كُلٌّ ذلـك ويـأبى ، وصمت عنه ﷺ طويلاً ، ثم قال : « نعم »[(١)] .

فلما انصرف عبـد الله مع عثمان رضي الله عنـه قـال رسول الله ﷺ لمن حوله : « أما كان فيكم رجلٌ رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قـد صمتٌ فيقتلـه ؟ » ، وفي روايـة : « أمـا كان فيكم رجل رشيـد يقوم إلى هـذا حين رآني كففت يـدي عن بيعتـه فيقتلـه ؟ » ، فقـالوا : مـا يـدرينـا يا رسول الله مـا في نفسـك ، هلا أومـأت إلينـا بعينـك ؟ فقـال ﷺ : « الإيماء خيانة ، ليس لنبي أن يومئ »[(٢)] .

ولـما جـاء بـه عثمان أبصره أنصـاري فـاشتمـل على السيف ، ثم أتـاه فوجده في حَلْقة رسول الله ﷺ ، فجعل يتردد ويكره أن يُقدم عليـه ،

---

(١) لمصير من أُهـدر دمـه راجـع : الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤٠/ب ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ٢٩٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٩ ، السّيرة الحلبيّـة : جـ ٣ ص ١٠٥ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٤٤ ، الكامل في التـاريخ : جـ ٢ ص ١٦٨ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٥ ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص١٤١ .

فبسط رسول الله ﷺ فبايعه ، ثم قال للأنصاري الذي كان قد نذر أن يقتل عبد الله : « قد انتظر أن توفي بنذرك ؟ » ، فقال الأنصاري : يا رسول الله هِبْتُكَ ، أفلا أومَضْتَ[1] إليَّ ؟ قال ﷺ : « إنَّه ليس للنبيِّ أن يومض » .

وحسن إسلام عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، ولم يظهر منه شيء ينكر عليه ، وهو آخر النجباء العقلاء الكرماء من قريش ، وكان فارس بني عامر بن لؤي المقدَّم فيهم . ولاَّه عمر بن الخطاب بعضَ أعماله ، ثم ولاَّه عثمان ، وهو قائد « ذات الصواري » حيث حقَّق نصراً بحرياً رائعاً لأسطول المسلمين سنة ٣١ هـ (أو ٣٤ هـ) . ومات وهو ساجد في صلاة الصبح ، استجابة من الله لدعائه .

عبد الله بن خَطَل[2] : ركب فرسه ، ولبس الحديد ، وأخذ بيده قناة ، وصار يقسم : لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل الله ، دخله الرعب ، فانطلق إلى الكعبة ، ونزل عن فرسه ، وألقى سلاحه ، ودخل تحت أستار الكعبة ، وقال رسول الله ﷺ : « اقتلوه فإن

(١) هَلاَّ أَوْمَضتَ إليَّ : هلاَّ أَشَرْتَ إلي إشارة خفيَّة ، من أومض البرقُ وومض ، لسان العرب ، جـ ٧ ص ٢٥٢ .

(٢) كان اسمه عبد العزى ، سماه رسول الله ﷺ (عبد الله) .

الكعبة لا تعيذ[1] عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب »[2] .

وقُتِلَ عبد الله وهو معلَّق بأستار الكعبة ، اشترك في قتله أبو بَرْزة الأسلمي[3] ، وسعيد بن حُرَيث المخزومي ، وقتلت إحدى قينتيه ، واستُؤْمِنَ للأُخرى .

الحويرث بن نُقَيذ بن وهب بن عبد قصي : قتله عَلِيٌّ رضي الله عنه .

مِقْيَس بن صُبَابة : أدركه رجل من قومه[4] في السوق ، فقتله .

سارة[5] مولاة لبني عبد المطلب : هربت حتى استُؤْمِنَ لها

---

(١) عاذ به يَعُوذ عَوْذاً وعياذاً ومَعاذاً ، لاذ به ولجأ واعتصم ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٤٩٨ .

(٢) وإن معنى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران ٩٧/٣] فمعناه الخبر عن تعظيم حرمة الحَرَم في الجاهلية ، نعمة منه سبحانه على أهل مكّة . وقد أقرهم الإسلام على ذلك حتى في أيام الفتح إذ قال ﷺ : « ومن دخل المسجد فهو آمن » . غير أن عبد الله بن خطل لم يدخل المسجد مستأمناً منذ إعطاء الأمان ، وإنما تهيأ للقتال وأعد له عدته ، ثم جبن ولم يؤمن كما آمن أصحابه من المطلوبين فعفي عنهم ، فوجب عقابه حتى لو فر إلى المسجد الحرام واحتمى به .

(٣) أبو بَرْزَة الأَسْلَمي : اختُلِفَ في اسمه واسم أبيه ، وأصح ما قيل فيه فضلة بن عبيد ، أُسد الغابة : جـ ٥ ص ٣١ .

(٤) يقال له : نُمَيلة بن عبد الله ، أدركه في السُّوق فقتله .

(٥) وهي في بعض المراجع « أُمّ سارة » ، راجع لخبرها : السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٥ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٦ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٤ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٢٢ .

من رسول الله فأمَّنها ، فعاشت إلى زمن عمر ، فأوطأها رجلٌ فرساً فماتت .

عكرمة بن أبي جهل : هرب بعد الفتح يريد اليمن ، فركب البحر ، فأصابت السفينة ريح عاصفة ، فقال أهل السفينة بعضهم لبعضٍ : أخلصوا ، فإن آلهتكم لاتُغني عنكم شيئاً هاهنا ، فقال عكرمة : والله لئن لم يُنْجِ في البحر إلاَّ الإخلاص ، فإنه لا ينجي في البَرِّ غيره ، اللّهم إن لك عليَّ عهد إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنّه عَفُوّاً كريماً .

وأسلمت امرأته أُمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، واستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمّنه ، فذهبت في طلبه حتى أتت به رسولَ الله ﷺ[1] ، فقال : يا محمد ، هذه (يعني زوجه) أخبرتني أنك أمنتني . فقال ﷺ : « صَدَقَتْ ، إنَّكَ آمن » ، فقال عكرمة : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنَّك عبده ورسوله ، وطأطأ رأسه من الحياء ، فقال ﷺ : « ياعكرمة ماتسألني شيئاً أقدر عليه إلا

---

(١) ولما قدم عكرمة قام ﷺ فرحاً به ، ورمى ﷺ رداءه وقال : « مرحباً بمن جاء مؤمناً » ، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة . ومما قاله ﷺ قبل أن يقدم عليه عكرمة : « يأتيكم عكرمة مؤمناً فلا تسبُّوا أباه ، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي ولايلحق الميت » ، وقال : « لاتؤذوا الأحياء بِسَبِّ الأموات » ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٠٧ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣١٦ .

أعطيتكه » ، قال : استغفر لي عداوة عاديتكها ، فقـال ﷺ : « اللّهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلّم به »[١] .

هبار بن الأسود : لم يعثر عليه المسلمون يوم الفتح ، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة جاء هبار رافعاً صوته قـائلاً : يـا محمـد ، أنـا جئت مُقِرّاً بـالإسلام ، وأنـا أشهـد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمـداً عبـده ورسوله ، ولما جاء رسول الله ﷺ قال : السّلام عليك يانبي الله ، لقـد هربت منك في البلاد ، فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتـك وفضلـك في صفحـك عمن جهل عليـك ، وكنـا يـانبي الله أهل شرك ، فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلي ، وعمّا كان مني فـإني مقرٌّ بسوء فعلي ، معترف بـذنبي ، فقـال ﷺ : « يـاهبـار ، عفوت عنك وقد أحسن الله إليـك حيث هـداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله »[٢] .

وحشي بن حرب : هرب إلى الطـائف ، ولمـا خرج وفـد الطائف لِيُسْلِم ، ضاقت عليه الأرض وسبلها ، فقال : ألحق بـالشّـام أو

---

(١) ورد في السّيرة النبوية والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣١٨ : بارز عكرمة قبل إسلامـه رجلاً من المسلمين فقتله ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له بعض الأنصار : ماأضحكك يارسول الله ؟ وقد فُجعنا بصـاحبنـا . قـال ﷺ : « أضحكني أنّهما في درجـة واحـدة في الجنّـة » ، استشهـد عكرمة رضي الله عنه باليرموك .

(٢) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٦ ، السّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٠٦ .

بـاليمن ، أو ببعض البـلاد ، فـوالله إنِّي لفي ذلـك من هَمِّي إذ قـال لي رجل : ويحك ، والله إنه ما يقتل أحـداً يـدخل في دينـه ، فخرج حتى قدم على رسول الله فأسلم ، وقـال لـه رسول الله ﷺ : « اقعـد فحدِّثني كيف قتلتَ حمزة » ، فحـدثتـه ، فلمـا فرغت قـال : « ويحـك ، غَيِّب وجهـك عنّي » ، فكنت أتنكَّب[1] رسـول الله ﷺ حيث كان ، لئـلا يراني حتى قبضه الله[2] .

كعب بن زهير : جـاء تـائبـاً مسلمـاً ، وأنشـد قصيـدتـه التي مطلعها : « بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ » ، ومما قاله :

تَمْشِي الوشـاةُ بجنبيهـا وقـولهم :	إنَّـك يـا بنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُـولُ
فَقُلْتُ : خَلُّـوا سبيلي لا أَبَـا لَكُمُ	فَكُـلُّ مـا قَـدَّرَ الرحمنُ مَفْعُـولُ
أُنْبئتُ أَنَّ رسـولَ اللهِ أَوْعَـدَني	وَالعَفْـوُ عِنْـدَ رَسُول اللهِ مَـأْمُـولُ
لا تَـأْخـذنّي بَـأقوالِ الـوُشَـاةِ وَلَمْ	أُذْنِبْ وَإن كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَـاوِيلُ
إنَّ الرسـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ	مُهَنَّـدٌ مِنْ سُيُـوفِ اللهِ مَسْلُـولُ

فرمى عليه ﷺ بُرْدَةً كانت عليه . وبذل له معاوية زمن خلافته عشرة آلاف درهم فقـال : مـا كنت لأُوثر بثوب رسـول الله ﷺ الـذي

---

(١) نَكَبَ عن الشيء وعن الطريـق يَنكُبُ نكبـاً ونُكـوبـاً ، ونَكِبَ نكبـاً ، ونَكَّبَ وتَنَكَّبَ : عَدَلَ ، لسان العرب : جـ ١ ص ٧٧٠ .

(٢) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٩ .

أعطانيه أحداً ، فلما مات بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً وأخذها منهم .

الحارث بن هشام وزهير بن أبي أُميَّة بن المغيرة :

« قد أجرنا من أجرتِ ياأُمَّ هانئ[1] »

وكانت أُمُّ هانئ بنت أبي طالب عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، فلما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فَرَّ إليها ملتجئاً رجلان من أحمائها من بني مخزوم هما : الحارث بن هشام ، وزهير بن أبي أُميَّة بن المغيرة ، فدخل أخوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : والله لأقتلنها ، فأغلقت عليها باب بيتها ، ثم جاءت رسولَ الله ﷺ وهو بأعلى مكّة ، فوجدته يغتسل من جفنة[2] ، وفاطمة ابنته رضي الله عنها تستره بثوبه ، فقال ﷺ : « مَنْ هذه ؟ » ، قالت : أُم هانئ ، قال ﷺ : « مرحباً بأُمِّ هانئ » ، فلما اغتسل ﷺ أخذ ثوبه

---

(١) أُم هانئ اسمها « هند » تُكَنَّى بابنها هانئ بن هبيرة أسلمت يوم الفتح ، راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤١/أ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٤٤ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٨ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٠٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٥ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٢٩٩ و ٣٠٠ ، والسِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) الجَفْنَةُ : أعظم مايكونُ من القِصَاع ، والجمع جِفانٌ وجِفَنٌ ، لسان العرب : جـ ١٣ ص ٨٩ .

فتوشَّح بـه ، ثم صلى ثمـاني ركعـات من الضحى[1] ، ثم قـال : « مرحبـاً وأهلاً بأُم هانئ ، ماجاء بك ؟ » ، فـأخبرتـه خبر الرجلين وخبر علي ، فقال ﷺ : « قد أجرنا من أَجَرْتِ ، وأمَّنَّا من أمَّنت فلا نقتلهما » .

صَفْوانُ بن أُمَيَّة[2] : وكان من أشد الناس عداوة وأذيَّـة لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، خرج بعـد الفتـح يريـد جُـدَّة ليركب منهـا إلى اليمن ، فقـال عُمَير بن وهب : يـانَبِيَّ الله ، إن صفوان بن أُميَّـة سيـد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر ، فـأَمِّنْـهُ يـا رسول الله صلى الله عليك ، فقال ﷺ : « هو آمن » .

قال عمير : يا رسول الله ، فأعطني آيةً يعرف بها أمانَك ، فأعطـاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكّة ، فخرج بها عمير حتى أدركـه وهـو يريـد أن يركب في البحر ، فقـال لـه : يـا صفـوان ، فـداك أبي وأمّي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، هذا أمانٌ من رسول الله ﷺ وقد جئتك به ، قال : ويلك اعزُبْ[3] عني فلا تكلمني ، قال : أي صفوان ،

---

(1) « صلى ﷺ ثـماني ركعـات سُبْحَـة الضحى » النـافلـة ، وقـال آخرون : بل كانت هـذه صـلاة الفتح ، وقد صَلاَّها سعد بن أبي وقَّاص يوم فتح المدائن في إيوان كسرى ثماني ركعات ، يُسَلِّم من كل ركعتين .

(2) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١/١٤١ ، السِّيرة النبـويَّـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٤ ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ٤٤ ، السِّيرة الحلبيَّـة : جـ ٣ ص ١٠٨ ، الكَامِـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٦٨ ، الطبري : جـ ٣ ص ٦٣ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(3) عَزَبَ عني فلانٌ ، يَعْزُبُ ويَعْزِبُ عزوباً : غاب وبَعُدَ ، لسان العرب : جـ ١ ص ٥٩٧ .

فداك أبي وأُمّي ، أفضلُ الناس ، وأبرُّ الناس ، وأحْلَمُ الناس ، وخير الناس ، ابن عمك عِزّه عِزّك ، وشرفه شرفك ، وملكه مُلْكُك ، قال : إني أخاف على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف عند رسول الله ﷺ ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنَّكَ أمَّنتني ؟! فقال ﷺ : « صَدَق » ، قال : فاجعلني بالخيار فيه شهرين ، فقال ﷺ : « أنت بالخيار أربعة أشهر » .

ثم خرج صفوان مع رسول الله ﷺ إلى غزوة حُنَين ، ولما فرَّق رسول الله ﷺ غنائمها رآه يَرْمُقُ شِعْباً[1] ملآن نَعَماً وشاءً[2] ، فقال له ﷺ : « يعجبك هذا ؟ » ، قال : نعم ، قال ﷺ : « هو لك وما فيه » ، فقال صفوان : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي ، فأسلم[3] .

هِنْدُ بنتُ عُتبَة : استخفت ثم أسلمت ، كما سيأتي تفصيله .



---

(١) رَمَقَ : نظر ، والشِّعْبُ : ما انفرج بين جَبَلَيْن ، والشِّعْبُ : مسيل الماء في بطن من الأرض ، لسان العرب : جـ ١ ص ٤٩٩ .

(٢) النَّعَمُ : واحد الأنعام ، النَّعَمُ : الإبلُ والشاءُ يذكر ويؤنث ، وفي رأي : النَّعَمُ : الإبل خاصة . والأنعام : الإبل والبقر والغنم ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٨٥ .

(٣) وهذا ماسيمر تفصيله في (غزوة حنين والطائف) عند الحديث عن المؤلَّفة قلوبهم .

جاء الحق وزهق الباطل

* « لا إلـه إلاّ الله وحـده لا شريـك لـه ، صدق وعـده ، ونصر عبـده ، وهـزم الأحـزاب وحـده ، ألا كُـلُّ مَـأْثَرَةٍ أو دَمٍ أو مـال يُـدَّعى فهـو مـوضـوعٌ تحت قـدميّ هـاتين ، إلا سِدَانة البيت وسقاية الحاج ، فإنَّها أمضيتها لأهلها على ما كانت »

محمد رسول الله ﷺ .

ونزل رسول الله ﷺ من أعالي مكَّـة بعـد أن اطمأن النـاس ، فجـاء البيت فطاف بـه سبعـاً على راحلتـه ، يستلم الركن بمحجن[1] في يـده ، فلما قضى طوافه دعـا عثمان بن طلحـة ، فـأخـذ منـه مفتـاح الكعبـة ، ففتحت له فدخلها ، فوجد فيهـا حمـامـةً من عيـدان فكسرهـا بيـده ثم طرحهـا ، ورأى صـور المـلائكـة وغيرهم ، ورأى إبراهيم عليـه السَّلام

(١) المحجن كالصـولجـان ، والمحجن : عصـاً مُعَقَّفـة الرأس كالصـولجـان ، لسـان العرب : جـ ١٣ ص ١٠٨ .

مصوَّراً في يده الأزلام[1] يستقسم بها ، فقال ﷺ : « قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ماشأن إبراهيم والأزلام ؟ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرانِيّاً وَلكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾[2] » ، ثم أمر ﷺ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أن يطمس هذه الصُّوَر ويمحوها ، فَبَلَّ عُمَرُ ثوباً ومحاها به ، فدخلها رسول الله ﷺ ومافيها منها شيء .

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وفيها سِتُّ سَوارٍ ، فقام إلى كل سارية فدعا ولم يصلِّ فيه .

وفي السِّيرة النبوية لابن كثير ، أَنَّه ﷺ دخل الكعبة ، فدخل ومعه الفضل بن العباس ، وأُسامة بن زيد ، وبلال ، وعثمان بن طلحة وأمر بلالاً فأجاف[3] عليهم الباب ، فمكث فيه ماشاء الله ثم خرج ، فاستبق الناسُ ، فكان عبد الله بن عمر أوَّلَ من دخل ، فوجد بلالاً وراء الباب قائماً ، فسأله : أين صَلّى رسول الله ﷺ ؟ فأشار له إلى المكان الذي صَلّى فيه « هاهنا بين الأسطوانتين » ، وقال عبد الله بن عمر : ونسيت أن أسأله كم صَلَّى من سجدة .

---

(١) الأزلام : السِّهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٢٧٠ .

(٢) [آل عمران ٦٧/٣] .

(٣) في لسان العرب : جـ ٩ ص ٣٥ : [وفي حديث الحج : أنه دخل البيت وأجافَ البابَ ، أي ردَّه عليه] ، أجاف : ردَّ الباب وأغلقه .

وثبت في صحيح البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ صَلَّى في الكعبة تلقاء وجهة بابها من وراء ظهره ، فجعل عمودين عن يمينه ، وعموداً عن يساره ، وثلاثة أعمدة وراءه ، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ، وكان ﷺ بينه وبين الحائط الغربي مقدار ثلاثة أذرع[(1)] .

ثم اتجه ﷺ إلى زمزم ، فأخرج العباس منها دلواً ، فشرب ﷺ منه وتوضّأ ، لا تسقط قطرة إلاّ في يد إنسان[(2)] ، إن كان قدر شربها ، وإلاّ مسح بها جلده ، والمشركون يتعجّبون من ذلك ويقولون : ما رأينا ولا سمعنا مَلِكاً قط بلغ هذا[(3)] .

وأبعد ﷺ (المقامَ) إلى مكانه اليومَ ، وكان مُلْصَقاً بالبيت .

وعند باب الكعبة (وعلى درجها) وقف رسول الله ﷺ وقال[(4)] : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مَأْثَرَةٍ أو دمٍ أو مال يُدَّعى فهو

---

(1) السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧٥ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤١ .

(2) « ودعا بماءٍ فشرب منها وتوضّأ ، والناسُ يبتدرون وضوءه » ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٦٩ .

(3) السّيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٠١ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(4) الاكتفاء : جـ ١ ص ١/١٤١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٠١ ، الطبري : جـ ٣ ص ٦٠ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٨ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٠ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٠ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٥ .

موضوع تحت قدميّ هاتين ، إلا سِدَانة البيت ، وسِقَاية الحاجّ ، فإنَّهما أمضيتهما لأهلها على ما كانت ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسَّوط والعصا ففيه الدية مُغَلَّظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكم شُعُوباً وَقَبائِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] » .

وذكر رسول الله ﷺ في خطبته بعض الأحكام ، منها :

١ ـ لا يقتل مسلم بكافر .

٢ ـ ولا يورث أهل ملَّتين مختلفتين .

٣ ـ ولا تنكح المرأة على عمتَّها ولا على خالتها .

٤ ـ والبَيِّنة على المُدَّعي واليمين على من أنكر .

٥ ـ ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي مَحْرَم .

٦ ـ ولا صلاة بعد العصر ، ولا بعد الصبح .

٧ ـ ولا يُصَام يوم الأضحى ، ولا يوم الفطر ..

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحِجَابةَ مع

---

(١) [الحجرات ١٣/٤٩] .

السّقـايــة صلى الله عليــك ، فقــال رسـول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة[1] ؟ » ، فَدُعِيَ له فقال : « هاك مفتاحـك يـا عثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء »[2] .

ومما يذكر ، أن رسول الله ﷺ قبل الهجرة أراد أن يدخل الكعبـة مع الناس ، وكانت تفتح في الجـاهليـة يوم الأثنين والخميس ، فلمـا أقبل ﷺ ليـدخلهـا أغلـظ عليـه عثمان بن طلحـة ـ وكان يومهـا مشركاً ـ ، ونال من رسول الله ﷺ ، يقول عثمان بن طلحة : وحلم عَلَيَّ ، ثم قـال ﷺ : « ياعثمان ، لعلّك سترى هـذا المفتـاح يومـاً بيـدي أضعـه حيث شئت » ، فقلت : قــد هلكت قريش يـومئــذ وذلت ، فقــال ﷺ : « عمرت وعزّت يومئذ » ، فوقعت كلمته ﷺ مني موقعـاً ، وظننت أن الأمر سيصير إلى مـا قـال ﷺ ، فلمـا قـال لي ﷺ يـوم الفتـح ذلــك (مذكراً ﷺ عثمانَ بما قاله قبل الهجرة) قلت : بلى ، أشهد أنك رسول الله[3] .

---

(١) أسلم عثمان بن طلحة قبل الفتح مع خالد بن الوليـد وعمرو بن العاص ، وبقي في المـدينـة ، وجاء مع رسول الله ﷺ بجيش الفتح إلى مكة ، ورجع مع رسول الله ﷺ إلى المـدينـة ، ولم يزل مقيماً بها حتى توفي ﷺ ، عندها رجع إلى مكة ، واستمر مقيماً بهـا حتى مـات أول خلافة معاوية .

(٢) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤١/ب ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ٤١ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٤٤ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٨ ، السّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧٠ .

(٣) السّيرة الحلبيّـة : جـ ٣ ص ١١٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٨ ، السّيرة النبـويّـة والآثـار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٣٠ .

ثم حطم رسول الله ﷺ الأصنام ، فقد كان حول البيت الحرام يوم الفتح ستون وثلاثمئة صنم ، فجعل يطعنها بقوس آخذ بسِيَتِه[1] في يده ، فيهوي الصنم حتى مرَّ عليها كلها وهو يقول : « جاء الحق وزَهَق الباطل ، جاء الحق وما يُبْدئ الباطلُ ما يعيد[2] » .

قال ابن هشام : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول الكعبة أصنامٌ مَشْدودة بالرصاص ، فجعل رسول الله ﷺ يشير بقضيب[3] في يده إلى الأصنام ويقول : ﴿ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولاأشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أُسيد الخزاعي :

وَفِي الأَصْنَــــامِ مُعْتَبَرٌ وَعِلْمٌ   لِمَنْ يَرْجُو الثَّوابَ أَوِ العِقَابَا[4]

---

(١) سِيَةُ القَوْسِ : طرف قَابها ، وقيل : رأْسُها ، وقيل : ما اعْوَجَّ من رأسها ، ما عُطِفَ من طرفيها ، ولها سِيَتَان ، لسان العرب : جـ ١٤ ص ٤١٧ .

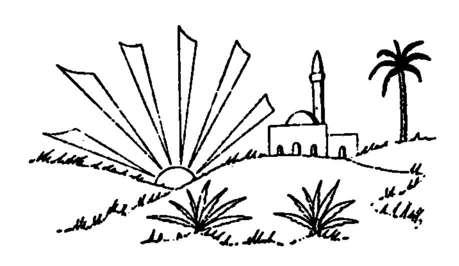
(٢) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧١ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ٩٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧١ .

(٣) وفي السِّيرة النبويَّة لابن كثير : « فجعل يطعنها بعود في يده » .

(٤) تَمِيمُ بنُ أُسيد (وقيل أسد) بن عبد العزى الخزاعي ، أسلم وولاَّه ﷺ تجديد حدود الحرم وإعادتها ، [أُسد الغابة : جـ ١ ص ٢٥٥] .

ونادى مناديه ﷺ بمكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره »[1] .





(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٧ ، السّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٨ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٣٦ ، وجاء في هذا المرجع الأخير ص ٣٣٥ : حاول عليٌّ أن ينهض برسول الله ، فرأى رسول الله ضعفه تحته ، فقال اجلس ، فجلس ، ثم قال : « ياعلي ، اصعد على منكبي » ففعل ، يقول علي : فلما نهض بي خُيِّل لي أني لو شئتُ نلتُ أُفق السَّماء ، فصعدت فوق الكعبة ، وتنحّى ﷺ فقال : « ألق صنمهم الأكبر ـ صنم خزاعة وكان نحاساً موتداً بأوتاد من حديد ـ إلى الأرض » .
ونحن إذ نرفض هذه الرواية نجعل السبب أن طلحة بن عبيد الله نهض برسول الله (ﷺ) يوم أحد ، قعد تحته وصعد رسول الله (ﷺ) حتى استوى على الصخرة ، فقال (ﷺ) : « أوجب طلحة » ، ومانظن أن علياً أقل قدرة وقوة من طلحة ، هذا ، والمصادر الرئيسة لم تذكر هذا الخبر مطلقاً .

الطلقاء

* « يامعشر قريش ، ويـاأهل مكّة ، ماترون أنّي فاعلٌ بكم ؟ ..
أقول كما قـال أخي يوسف : لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » .
محمد رسول الله ﷺ

وعند باب الكعبة ، ورسول الله ﷺ على درجها قـال : « يـامعشر قريش ، وياأهل مكة ، ماترون أني فاعلٌ بكم ؟ » .

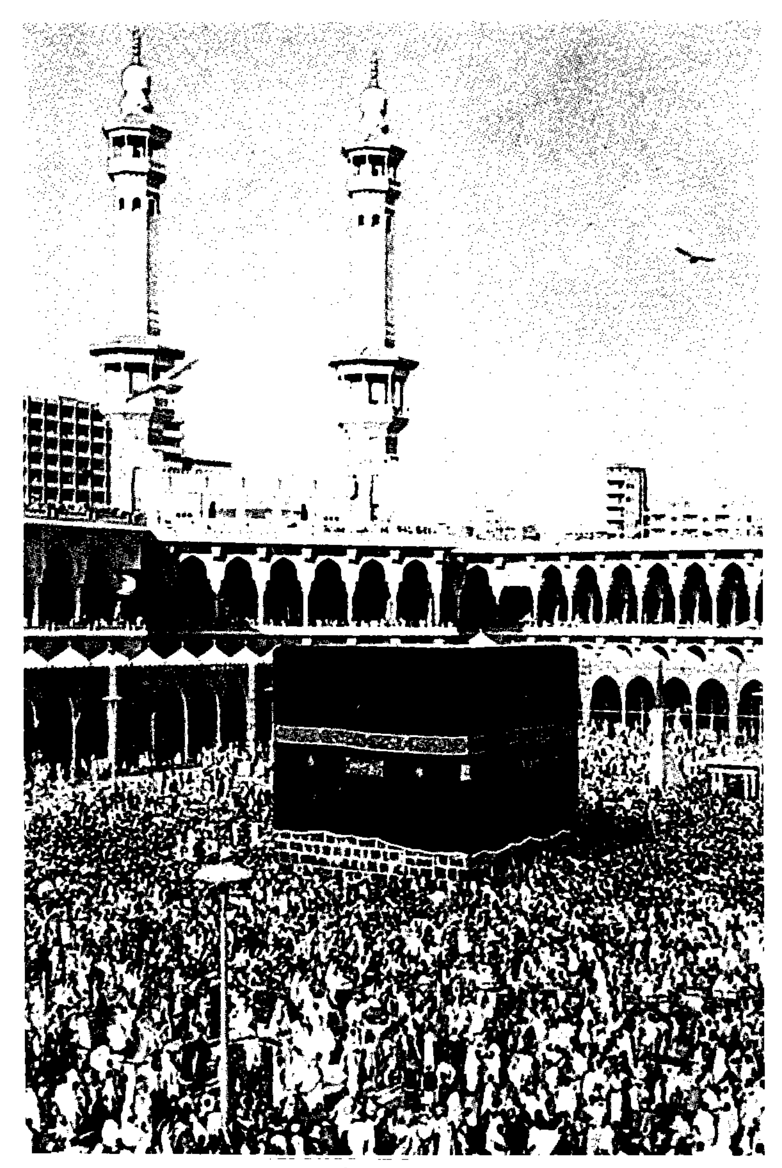
فـأجـاب سهيل بن عمرو : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت .

فقــال ﷺ : « أقـول كما قــال أخي يــوسف : لاتثريب[1] عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » لِمَن ؟

---

(١) التَّثْريب كالتَّأنيب والتَّعْيير والاستقصاء في اللَّوم ، وثَرَّبَ عليه : لامـه وعَيَّره بـذنبـه ، وذكَّره به ، لسان العرب : جـ ١ ص ٢٣٥ .



الكعبة المشرّفة

لمن قال شاعر كذاب .

لمن قال ساحر مجنون .

لمن حاصره في شعب أبي طالب .

لمن ذهب إلى الحبشة لإرجاع المسلمين والمهاجرين ليتابع تعذيبهم .

لمن أخرجه من مكة مطارداً مطلوباً لقتله .

لمن استحل أملاك المسلمين فصادرها وباعها .

لمن قتل الحمزة وشوَّه جثَّته .

لمن جمع الأحزاب وحاصر المدينة بعشرة آلاف مقاتل لاستئصال المسلمين .

لمن صَدَّه عن البيت الحرام عندما جاءه معظِّماً يريد العمرة ، ثم فرض نَصَّ الحديبية متعالياً عنيداً .

لمن حرض ـ وشارك ـ بني بكر على خزاعة ، واستحلوا دماء أبنائها في الحرم ..

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » بعد الفتح ، ومن ثُمَّ بعد غزوة هوازن : الغنائم لأعداء الأمس ، للطُّلَقاء ، لاستكمال الفتح الروحي القلبي ، ولامتلاك الأرواح والقلوب ، فجُبِلَت القلوب على حُبٍّ من أحسن إليها .

وهذا موقف فريد على مرِّ التاريخ فيه سمو لا يضاهيه سمو ، ورفعة لا يدانيها رفعة ، وعظمة لا تشبه بها عظمة .

إنه موقف ليس له ما يماثله مطلقاً ، ولا يقفه ملك ، أو زعيم ، أو قائد .. لا يقفه إلاَّ نبيٌّ مرسل ، رحمته من رحمة الله ، وحكمته من حكمة الله ، وعفوه من عفو الله .

لقد أحيا رسول الله ﷺ بعبارة رحيمة حكيمة ، فيها عفو وحِلْم ، قريشاً . وجعل السيوف المسلطة على الإسلام وأهله ، سيوفاً مع الإسلام وأهله ، تحميه بالمال والولد ، وتذود عنه بالأَنفس والمُهَج .

لقد تركت ـ صلى الله عليكَ وسلَّم ـ القصاصَ العادل ، وآثرت الإحسان ، فجعلت منهم (علماء) بالله روحاً وقلباً ، و (حكماء) فكراً وعقلاً ، ومن حيث النور والهداية (كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) .

لقد جمع ﷺ إلى عروبتهم إسلاماً ، فأنتجت قوة وعزة ومجداً وفتوحاً وإنسانية وعالمية ، لقد أبقى لهم عروبتهم ، لكنها عروبة جديدة ، عروبة محمد رسول الله ، لا عروبة أبي جهل وأبي لهب ، عروبة عمر وعلي ، لا عروبة مِقْيَس وعبد الله بن خطل ، عروبة لا تعرف إلا الإيمان الصادق والتقدُّم والعدل والمعرفة والانتصارات في كل ميدان طريقاً .

ولو تحقق لأبي لهب ما أراده في مكة قبل الهجرة ، لما كانت هناك حضارة عالمية .

ولو تحقق لأبي جهل ماأراده في بدر ، لما كانت هناك يرموك ولا قادسية .

ولو تحقق لأبي سفيان ماأراده من غزوة الخندق ، لما كانت هناك إفريقية ولا أندلس .

صلى الله عليك ياسيّدي يارسول الله ، فالخطيئة عندك لاتعني الهلكة ، فجعلت من مخاوف قريش أمناً وأماناً ، لقد أساؤوا فأحسنت .

وأفسدوا فحلمت .

وقطعوا ووصلت ، فملكت القلوب .



بلال فوق الكعبة :

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فعلا على الكعبة ، فأذّن عليها للصلاة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتّاب بن أُسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة[1] ، فقال عتّاب : لقد أكرم الله أُسَيداً ـ يعني

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤١/ب ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧٥ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ١٣٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٠٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٩ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٢ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤١ و ٤٢ ، السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١١٦ ، السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : جـ ٢ ص ٣٣٣ . الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١١٣ و ١١٤ .

والده ـ ألاَّ يكون سمع هذا فسمع منه ما يغيظه ، ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذِّناً ؟!

فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنَّه مُحِقٌّ لاتبعته .

فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلَّمتُ لأخبرتْ عني هذه الحصى .

فجاءهم رسول الله ﷺ وقال : « قد علمتُ الذي قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم ، (أما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا ..) ، فقال أبو سفيان : أمَّا أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً ، فضحك رسول الله ﷺ . وقال الحارث وعَتَّاب : نشهد أنك رسول الله ! ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا ، فنقول أخبرك[1] .

وقال بعض بني سعيد بن العاص : لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسودَ على ظهر الكعبة .

وقال رجل من قريش للحارث بن هشام : ألا ترىٰ إلى هذا العبد أين صعد ؟ فقال : دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيِّره .

وصار بعض قريش يستهزئون ويقلِّدون صوت بلال غيظاً ، وكان من جملتهم أبو محذورة الجمحي (سلمة بن معير)[2] ، وكان من

(١) السِّيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٦ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) وقيل اسمه (سمره بن معير) .

أحسنهم صوتاً ، فلما رفع صوته بـالأذان مستهزئـاً سمعـه رسول الله ﷺ فأمر به فمثل بين يديـه ، وهو يظن أنـه مقتول ، فمسح رسول الله ﷺ ناصيته[1] وصدره بيده الشريفة . قال أبو محذورة : فـامتلأ قلبي إيمـانـاً ويقيناً فعلمت أنه رسول الله ، فـألقى عليـه ﷺ الأذان وعلّمـه إيـاه ، وأمره أن يؤذّن لأهل مكة ، وكان عمره ست عشرة سنة . وورث عقبـه بعده الأذان بمكة .

لقـد أذّن بلال (العبـد الأسود) فـوق الكعبـة لتعلم قريش ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـاكُمْ ﴾[2] ، وأن الإسلام رفع العبـد الأسود بعـد أن حرّره جسداً وروحاً إلى أشرف مكانة ، فغاظ المشركين ذلك .

☆ ☆ ☆

تَرَدُّدُ أَبي سفيان بن حرب :

ورأى أبو سفيـان بن حرب (زعيم مكـة قبل الفتـح) رسـولَ الله ﷺ يمشي والناس يطؤون عَقِبيه[3] ، فقال في نفسه : ليت شعري بـأي

---

(١) النَّاصِيَةُ : قُصاصُ الشعر في مُقدَّم الرأس ، الناصية عند العرب مَنْبِتُ الشعر في مقـدَّم الرأس ، لسان العرب : جـ ١٥ ص ٣٢٧ .

(٢) [الحجرات ١٣/٤٩]

(٣) عَقِبُ القَدَم وعَقْبُها : مؤَخَّرها « مؤنثة » ، لسان العرب : جـ ١ ص ٦١١ .

شيء غلبني ؟! ، فأقبل رسولُ الله ﷺ عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال : « بالله غلبتك يا أبا سفيان »[1] .

ثم يقول أبو سفيان في نفسه : لو جمعتُ لمحمد جمعاً ؟! لو عاودت هذا الرجل القتال ؟

فجاءه رسولُ الله ﷺ حتى ضرب بيده في صدره ، وقال : « إذاً يخزيكَ الله » .

فقال أبو سفيان : أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوَّهت به ، ما أيقنت أنَّك نبي إلاَّ الساعة ، إني كنت لأُحدِّث بذلك نفسي ، فلم يزل ﷺ يترفق بأبي سفيان ويتألَّفه حتى تمكَّن الإسلام في قلبه .

ولما كانت ليلة دخل الناسُ مكَّةَ ليلة الفتح ، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا ، فقال أبو سفيان لزوجه هند بنت عتبة : أَتَريْ هذا من الله ؟ قالت : نعم ، هذا من الله ، ثم أصبح أبو سفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « قلت لهند : أَتَريْ هذا من الله ؟ قالت : نعم ، هذا من الله » ، فقال أبو سفيان : أشهد أنَّك عبد الله ورسوله ، والذي يُحْلَفُ به ما سمع قولي هذا أَحَدٌ من الناس غير هند .

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١١٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٧ .

« يا فُضَالة ، ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ » :

وأراد فضالة بن عُمَير بن الملوَّح قَتْلَ رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أَفُضَالة ؟ » ، قال : نعم ، فضالة يا رسول الله ، قال ﷺ : « ماذا كنت تُحَدِّث به نفسك ؟ » ، قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم قال : « استَغْفِرِ الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِنْ خَلْقِ الله شيء أحبَّ إليَّ منه[1] .

وقال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدَّث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ! فقال : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قَالَتْ هَلُمَّ إلَى الحَدِيثِ فَقُلْتُ لاَ ... يَأْبَى عَلَيْكَ اللهُ وَالإِسْلاَمُ
لَوْ مَا رَأَيْتِ مُحَمَّداً وَقَبِيلَهُ ... بِالفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ
لَرَأَيتِ دِينَ اللهِ أَضْحَى بَيِّناً ... وَالشِّركُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإظْلاَمُ[2]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه ، أتى الصفا ، فَعَلا عليه ، ورأى

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤١/ب ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٨ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤١/ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٠ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٤ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٠٨ .

بيوت مكَّة ، ونظر إلى البيت ، فرفع يديه وجعل يحمد الله عز وجل ، ويدعو بما شاء أن يدعو . ثم نظر إلى موضع قبَّته التي ضربت له .

« المحيا محياكم ، والمماتُ مماتكم » :

وعندما قام ﷺ على الصفا يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضَه وبلده بقيم بها ؟ « أمَّا الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته ، ورأفةٌ بعشيرته » .

فقال ﷺ : « ياأبا هريرة » . فقال : لبيك يارسول الله ، فقال ﷺ : « اهتف لي بالأنصار ، ولا يأتيني إلاَّ أنصاري » ، فهتف أبو هريرة ، فجاء الأنصار ، وأحاطوا برسول الله ﷺ[1] .

وقال ﷺ للأنصار : « يامعشر الأنصار ، ماذا قلتم ؟ ، أقلتم : أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ؟ » ، قالوا : لاشيء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، لأنه ﷺ كاد يُسَمِّي من قال ذلك ، فقال ﷺ : « معاذ الله ! كلا ، إني عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم »[2] .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٠٧ .

(٢) الاكتفاء جـ ١ ص ١٤٢/أ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٠ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٠٤ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٣٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٤٣ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

فـأقبل الأنصـار إليـه (ﷺ) يبكون ويقولـون : واللهِ مـاقلنـا الذي قلنـا إلا الضَّنَّ[1] بـالله ورسولـه ، فقـال ﷺ : « إنَّ الله ورسولـه يصدِّقانكم ويعذرانكم »[2] .



السّعي بين الصفا والمروة

---

(١) في بيعة العقبة ، قـال الأنصـار : « يـارسول الله ، هل عسيت إن نحن نصرنـاك وأظهرك الله أن ترجـع إلى قـومـك وتـدعنـا ؟ » ، فتبسَّم رسـول الله ﷺ ، ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم » ، والضَّنُّ : أي البخل بالله ورسولـه ، أي لانسمح أن يكون ﷺ في غير بلدتنا ـ يعنون المدينـة ـ ، فقـال ﷺ : « فـإن الله ورسوله يعذرانكم » ، أي يقبلان عذركم ويصدّقانكم .

(٢) ورجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفاء من جهة ، ومحبَّـة للأنصـار من جهـة ثانية ، وإشعارهم بمالهم من فضل وجهد في نشر الإسلام .

البيعة

« لا هجرة بعد فتح مكّة ولكن جهاد ونِيَّة ،
وإذا استُنْفِرتم فانفروا »[1] .

وعند الصفا[2] ، اجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفلَ من مجلسه ، فأخذ عليهم السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .

بايعهم - ﷺ - على الإيمان بالله ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وعند البيهقي : فجاءه الناس ، الكبار والصغار ، والرجال والنساء ، فبايعهم على الإسلام والشّهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٦٠٥ ، السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٠ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧١ ، الطبري : جـ ٣ ص ٦١ ، البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ٣٢٠ .

(٢) وكان عبد الله بن أُم مكتوم بين يديه ﷺ ، وبين الصفا والمروة كان يقول :

يا حَبَّذا مكةُ من وَادي ! أَرْضٌ بها أهلي وعُوَّادي
أرضٌ بها أمشي بلا هادي أرضٌ بها ترسخُ أَوْتادي

(ابن سعد في طبقاته : جـ ٢ ص ١٤١) .

ولما فرغ ﷺ من بيعة الرجال بايعَ النساء ، وفيهن هند بنت عتبة[1] مُتَنقِّبةً ، متنكِّرة بحَدِيثها لما كان من صنيعها بحمزة ، فهي تخاف أَن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك ، فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال : « بايِعْنَني على ألاَّ تشركن بالله شيئاً » .

فقالت هند : والله إنَّك لتأخذ علينا مالا تأخذه من الرجال !.

فقال ﷺ : « ولا تسرقن » .

فقالت هند : والله إنِّي كنت أصبتُ من مال أبي سفيان الهَنَة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا ؟! فقال أبو سفيان (وكان شاهداً لما تقول) : أَمَّا ما أصبتِ فيما مضى فأنتِ منه في حِل[2] .

---

(١) ولما أسلمت هند عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقَدوم وتقول : كنا منك في غرور ، وبعد البيعة أرسلت هند لرسول الله ﷺ بهديَّة وهي جَدْيان مشويَّان مع مولاة لها ، وقالت معتذرة عن هند : إن غنمها اليوم لقليل الوالدة ، فقال ﷺ : « اللّهم بارك لكم في غنمكم ، وأكثر والدتها » ، فكثَّر الله ذلك ، تقول تلك المولاة : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ، مالم نكن نرى قبل .

(٢) عن عائشة أن هنداً بنت عتبة امرأة أبي سفيان أتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيّ ، فهل عَلَيَّ من حرج إذا أخذتُ من ماله بغير علمه ؟ فقال ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » ، فقالت هند : يارسول الله ، ما كان مما على وجه الأرض أهل أخباء أحب إلي من أن يذلوا من أهل أخبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل أخباء أحب إلي من أن يعزوا من أهل أخبائك .

فقال رسول الله ﷺ : « وَإنك لهندٌ بنت عتبة ؟ » .

قالت : نعم ، فاعفُ عما سلف ، عفا الله عنك .

ثم قال ﷺ : « ولا يَزْنين » .

فقالت : يارسول الله ، وهل تزني الحرَّة ؟!

ثم قال ﷺ : « ولا تقتلن أولادكن » .

قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، فأنت وهم أَعْلَم[1] ! هل تركت لنا ولداً إلاّ قتلته يوم بدر ، أنت قتلت آباءهم يوم بدر ، وتوصينا بأولادهم ؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ ، وضحك عمر رضي الله .

ثم قال ﷺ : « ولا يأتين ببهتان[2] يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » .

قالت هند : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعضُ التجاوز أَمْثَل .

ثم قال ﷺ : « ولا يعصينني في معروف » .

فقالت هند : والله ماجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف .

---

(١) وقد يكون كناية عن إسقاط الأجنة .

(٢) البهتان : القول على إنسان مالم يفعله ، أو مالم يكن فيه ، وقد يكون المراد أيضاً : ألاّ تلحق بزوجها ولداً ليس منه .

ثم قال رسول الله ﷺ : « ولا تقعدن مع الرجال في خلاء »[1] ، ثم قال لعمر بن الخطاب : « بايعهن ، واستغفر لهن الله ، إنَّ الله غفور رحيم » ، فبايعهن عمر ، وكان رسول الله ﷺ لا يصافِحُ النِّساء ، ولا يمسُّ إلاَّ امرأة أحلَّها الله له ، أو ذات محرم منه[2] .

« لا هجرة بعد الفتح » :

وقال ﷺ بعد تمام الفتح : « لا هجرة بعد فتح مكة ، ولكن جهادٌ ونِيَّةٌ ، وإذا استُنفرتم فانفروا » .

لا هجرة بعد الفتح لأن المؤمنين كان يفرُّ أحدهم بدينه إلى الله عز وجل ، وإلى رسول الله ﷺ مخافة أن يُفتن عليه ، فأما بعد الفتح فقد أظهر اللهُ الإسلامَ ، فالمؤمن يعبد ربه حيث يشاء ، ولكن جهاد ونية .

لا هجرة ، لأن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً ، وظهر الإسلام ، وثبتت أركانه ودعائمه ، فلم تبق هجرة ، اللّهم إلاَّ أن يَعْرض حالٌ

---

(١) أي : لا تجتمع امرأة مع رجل في خلوة .

(٢) وقيل : بايع رسول الله ﷺ وعلى يده ثوب ، وقيل : إنه غمس يده في إناء وأمرهن فغمسن أيديهن فيه ، وبيعة النساء هذه ومافيها من بنود تذكرنا ببيعة العقبة الأُولى « بيعة النساء » ، يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : كنت فيمن حضر العقبة الأُولى ، وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء (سُمِّيت بيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أول امرأة بايعت) وذلك قبل أن تفترض الحرب على أن : لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، [الهجرة حدث غيَّر مجرى التاريخ : ص ٤٦ و ٤٧] .

يقتضي الهجرةَ بسبب مجاورة أهل الحرب ، وعدم القدرة على إظهار الدين عندهم ، فتجب الهجرة إلى دار الإسلام ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ، ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح ، كما أن كلاً من الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع ورُغِّب فيه إلى يوم القيامة ، وليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة ، قال تعالى في محكم التنزيل :

﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ ٱلْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] .

قال الإمام أحمد : لما نزلت سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [سورة النصر ١١٠] ، قرأها رسولُ الله ﷺ حتى ختمها ، وقال : « النَّاس خَيْرٌ ، وأنا وأصحابي خير » ، وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيَّة » .



(١) [الحديد : ١٠/٥٧] .

ومن أَحداث الفتح :

١ ـ لاشَفاعة في تطبيق شرع الله :

وسرقت امرأة فأراد ﷺ قطع يدها[1] ، ففزع قومها إلى أُسامة بن زيد بن حارثة يستشفعون به ، فلما كَلَّمُه أُسامة فيها ، تلوَّن وجهه ﷺ وقال : « أتكلمني في حد من حدود الله تعالى ؟ » . فقال أُسامة : استغفر لي يا رسول الله ، ثم قام ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فإن ماأهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها » .

ومما يذكر ، أن هذه المرأة حسن إسلامها ، وحسنت توبتها بعد ذلك ، وتزوجت ، قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[2] .

---

(١) يقول بعضهم : إن قطع اليد ، ورجم الزاني المحصن ، عقوبة موسومة بالقسوة والوحشيَّة ، لن نناقش القول هنا ، فقد فصَّلناه في كتابنا : « آراء يهدمها الإسلام » ، راجع الطبعة الثالثة : ص ٥٣ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٠ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣١٨ .

٢ ـ إسلام عتبة ومعتب :

وقال ﷺ لعمه العباس : « أين ابنا أخيك ـ يعني عتبة ومعتب ـ لا أراهما ؟ » .

العباس : قد تنحيًا فيمن تنحى من مشركي قريش .

قال رسول الله ﷺ : « ائتني بهما » ، فركب العباس إليهما ، وأتى بهما إلى رسول الله ﷺ ، فدعاهما للإسلام فأسلما ، وانطلق بهما حتى أتى المُلْتَزَم فدعا ساعة ، ثم انصرف ﷺ والسُّرور يُرَى في وجهه الكريم ، فقال العباس : سَرَّك الله يا رسول الله ، إني أرى السُّرور في وجهك ! قال ﷺ : « إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي » . وشهد عتبة ومعتب مع رسول الله ﷺ حُنَيناً والطائف[1] .

٣ ـ إسلام سُهَيل بن عمرو :

وأرسل سهيلُ بن عمرو وَلَدَه عبد الله ليأخذ له أماناً من رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أبي تُؤمنه ؟ فقال ﷺ : « نعم ، فهو آمن بالله فليظهر » ، ثم قال ﷺ لمن حوله : « من لقي سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر ، فلعمري ، إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام » .

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١١٢ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٢٦ .

فخرج ابنه عبد الله إليه ، فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سهيل : كان والله بَرّاً صغيراً ، بَرّاً كبيراً ، وخرج إلى حُنَين مع رسول الله ﷺ وهو على شِرْكِه ، حتى أسلم بالجعرانة[1] .

٤ ـ ٱلوَلَدُ لِلفِراشِ وَللعَاهِرِ الحَجَرُ » :

وجاء لرسول الله ﷺ سعدُ بنُ أبي وقَّاص وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ، ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد : يا رسول الله ، هذا ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليَّ أنه ابنه ، وقال لي : إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه منّي فاقبضه إليك . فقال عبد بن زمعة : يا رسول الله هذا أخي ابن وليدة أبي زمعة ، ولدته على فراشه .

فنظر رسول الله ﷺ إلى ذلك الولد ، فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص ، فقال لعبد بن زمعة : « هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنَّه وُلِدَ على فراش أبيك زمعة ، الوَلَدُ للفراشِ وللعاهِرِ الحَجَرُ »[2] .

---

(١) السّيرة الحلبيّة : جـ ٣ ص ١١٨ .

(٢) العاهر : الزاني ، وللعاهر الحَجَر : أي لا حَقَّ له في النَّسب ، ولا حظ له في الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أي لصاحب أُمِّ الولد ، وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له الترابُ ، أي لا شيء له ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٦١٢ ، وفي سنن الترمذي : جـ ٤ ص ١٣٠ : ومعنى له الحجر : أي الخيبة ، ولا حق له في الولد ، (وقيل المراد بالحجر هنا أنّه يرجم بالحجارة ، وهذا ضعيف لأنه ليس كل زان يرجم ، وإنما يرجم المحصن خاصة) ، والولد للفراش : فمعناه أنه إذا كان لرجل زوجة أو مملوكة صارت فراشاً له ، فأتت بولد الحق الولد به يجري بينهما التوارث وغيره من أحكام الولادة .

٥ - إسلام عَبد الله بن الزِّبَعْري السَّهمي[١] :

قال حسَّان بن ثـابت بحقّ ابن الزِّبَعْري وهو بنجران بيتـاً واحـداً ما زاد عليه :

لاَ تَعْـدَمَنْ رَجُـلاً أَحَلَّـك بُغْضُـهُ ... نجرانَ في عَيْشٍ أجـــــدَّ لَئِيمِ[٢]

فلما بلغ ذلك ابنَ الزِّبَعْري خرج إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلم ، وقـال حين أسلم :

يـا رسـولَ المَلِيـكِ إنَّ لِسَـاني ... راتِـقٌ مـا فَتَّقْتُ إذْ أنـا بُـورُ[٣]

إذْ أُجارِي[٤] الشيطـانَ في سَنَنِ ... ٱلغَيِّ ومن مـالَ مَيْلَـه مثبـورُ[٥]

آمَنَ اللَّحْمُ والعظـامُ بِمَـا قُلْـ ... ـتَ فنفسي الشَّهِيدُ أنت النَّذِيرُ[٦]

---

(١) عبد الله بن الزِّبَعْري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي الشاعر ، أمُّه عاتكة بنت عبد الله بن عُمَير ، كان من أشد النـاس عداوة للإسلام ، ومن الشعراء الـذين أستعملوا قُوَاهم في هجاء المسلمين ، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنـابة والرجوع إلى الإسلام والقيـام بنصره والذَّب عنه ، أسد الغابة : ٢٣٩/٣ .

(٢) الأَجد : المنقطع ، وروي أيضاً : أحذّ : وهو بنفس المعنى « القليل المنقطع » .

(٣) الراتق : السادّ ، والبور : الهالك ، ونحن نورد هنا رواية أسد الغابة : جـ ٣ ص ٢٣٩ .

(٤) وفي رواية : « إذ أباري » .

(٥) وفي رواية : « مغرور » ، ومعنى مثبور : هالك .

(٦) وورد هذا البيت في بعض المراجع :

آمَنَ اللحمُ وَالعِظَـــــــامُ لِرَبِّي ... ثُمَّ قَلْبي الشَّهِيـــدُ أَنْتَ النَّـــذيرُ

إنَّ ماجئتنا بِهِ حَقٌّ صدق ... سَاطِعٌ نُورُهُ مُضِيءٌ مُنِيرُ

جئتنا باليقينِ وَالبرِّ وَالصِّدْ ... قِ وَفي الصدقِ واليقينِ سُرُورُ

أذهبَ اللهُ ضَلَّةَ الجَهْلِ عَنَّا ... وَأتانا الرَّخَاءُ وَالمَيْسُورُ

وقال أيضاً :

مَنَعَ الرقادَ بَلابِلٌ وَهُمُومُ ... وَالليلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بَهِيمُ[1]

مِمَّا أتاني أنَّ أحمدَ لامَنِي ... فِيهِ فَبتُّ كأنني مَحْمُومُ

ياخيرَ من حَمَلَتْ على أوْصَالِهَا ... عَيْرانَةٌ سُرُحُ اليَدَيْنِ غَشُومُ[2]

إنِّي لمعتذرٌ إليكَ مِنَ ٱلتي ... أسْدَيْتُ إذْ أنا في الضَّلالِ أهِيمُ[3]

أيَّامَ تَأمُرُني بأغْوى خُطَّةٍ ... سَهْمٌ وَتَأمُرُني بِهَا مَخْزُومُ[4]

وَأمُدُّ أسْبَابَ الهَوَى وَيَقُودُني ... أمْرُ ٱلغُوَاةِ وَأمْرُهُم مَشْؤُومُ

فَاليَوْمَ آمَنَ بالنَّبِيِّ محمَّدٍ ... قَلْبي وَمُخْطِئُ هذه مَحْرُومُ

مَضَتِ ٱلعداوةُ وَٱنْقَضَتْ أسْبَابُهَا ... وَأتَت أواصِرُ بيننا وَحُلُومُ[5]

فاغفِرْ فِدَىً لَكَ وَالِدايَ كِلاهُمَا ... وَٱرحَمْ فإنكَ راحِمٌ مَرْحُومُ

---

(١) البلابل : الوساوس المختلطة والأحزان ، والمعتلج : المضطرب ، والبهيم : شديد الظلام ، الذي لاضياء فيه .

(٢) العَيْر : الحمار ، أيّاً كان أهلياً أو وَحْشِيّاً ، وقد غلب على الوحشي ، والأنثى عَيْرة ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٦٢٠ ، وسرح اليدين : خفيفة اليدين ، وغشوم : ظلوم ، يعني أن مشيها فيه خفاء ، والعَيْرانة من الإبل : الناجية في نشاط .

(٣) أسديت : صنعت ، وفي السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٦ : « من الذي أسديت » .

(٤) سهم ومخزوم : قبائل عربية معروفة .

(٥) الأواصر : قرابة الرحم بين الناس .

وَعَلْيكَ مِنْ سِمَةِ المَلِيكِ عَلاَمَةٌ   نُورٌ أغَرٌّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ
أعطاكَ بعدَ محبةٍ بُرْهَانَهُ   شَرَفاً وَبَرْهَانُ الإلهِ عَظِيمُ
ولقد شهدتَ بأنَّ دينكَ صادقٌ   حَقٌّ وأنكَ في المعادِ جَسِيمُ[1]
واللهُ يشهدُ أنَّ أحمدَ مصطفىً   مستقبلٌ في الصالحين كَرِيمُ
قَرْمٌ عَلاَ بنيانَهُ مِنْ هاشمٍ   فَرْعٌ تمكَّن في الذُّرا وأُرومُ[2]

☆ ☆ ☆

مِمّا قيل من أشعار في يوم الفتح الأعظم :

قال حسَّان بن ثابت :

عفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ   إلى عَذْراء مَنْزِلُها خَلاءُ[3]
ديارٌ من بني الحسْحَاس قَفْرٌ   تعفِّيها الرَّوامِسُ والسَّمَاءُ[4]
وكانت لا يزال بها أنيسٌ   خلالَ مُروجها نَعَمٌ وشاءُ[5]

---

(١) هذا البيت ومايليه لم يردا في أُسد الغابة ، راجع : السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٦ .

(٢) القَرم : السيِّد ، وأروم : الأصول .

(٣) الجواء والعذراء : مواضع بالشام .

(٤) الروامس : الرياح ، والسَّماء : المطر .

(٥) النَّعَمُ : واحدة الأنعام ، النَّعَمُ : الإبل والشاءُ ، وفي رأي : النَّعَمُ : الإبل خاصة ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٨٥ .

فَـدَعْ هــذا ولكن مَنْ لِطَيْفٍ — يُـؤرِّقني إذا ذهبَ العشـاءُ

لِشَعْثـاء[1] التي قـد تيَّمْتـه — فليس لقلبـه منهـا شِفَـاءُ

كأن خبيئـةً من بيت رأسٍ[2] — يكـون مِـزاجَهـا عَسَـلٌ ومـاءُ

إذا مـاالأشْربات ذُكِرْنَ يـومـاً — فهن لطيِّب الراح الفِـداءُ

نـولِّيهـا المـلامَـةَ إن ألمنـا — إذا مـا كان مَغْثٌ أو لِحَـاءُ[3]

وَنَشْربهـا فتتركنـا ملـوكاً — وَأُسْـداً مـا يُنَهْنِهُهَـا اللِّقـاءُ[4]

عَـدِمنـا خيلَنـا إن لم تروهـا — تُثير النقـعَ مَـوْعـدهـا كَـداءُ[5]

يُنَـازِعْن ٱلأَعِنَّـة مُصْغيـاتٍ — على أكتـافهـا الأَسَـلُ الظِّماءُ[6]

تظـلُّ جيـادنـا متمطرات — يُلَطِّمُهُنَّ بـالخُمُر النِّسَـاءُ[7]

فـإمـا تُعْرضوا عنّـا اعْتَمرنـا — وكان الفتـحُ وانكشف الغطـاءُ

وإلاّ فـاصبروا لِجِـلاَدِ يَـوْمٍ — يُعِـزُّ اللهُ فيـه مَنْ يَشَـاءُ

وجِبريـلٌ رسـول الله فِينَـا — وَرُوحُ القُـدْس ليس لـه كِفَـاءُ

---

(١) شَعْثاءَ : اسم امرأة حَسَّان بن ثابت ، لسان العرب : جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٢) الخبيئة : الخمر المصونة ، وبيت رأس : موضع بالأُردن .

(٣) ألمنا : فعلنا مانستحق عليه اللوم ، والمغث : الضرب اليد ، واللحاء : الملاحاة باللسان .

(٤) النَّهْنَهَـةُ : الكَفُّ ، نَهْنَهْتُ فـلانـاً إذا زجرتـه فَتَنَهْنَـهَ أي كففتـه فَكفَّ ، لسـان العرب : جـ ١٣ ص ٥٥٠ .

(٥) كَدَاء : موضع بأسفل مكّة عند ذي طوى .

(٦) مصغيات : موائل منحرفات ، والأسل : الرماح .

(٧) متمطرات : متسابقات ، يلطمهن : يضربن .

وقالَ اللهُ قد أرسلتُ عَبْداً ... يقولُ الحَقَّ إن نَفَعَ البلاءُ
لَنا في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ[1] ... سِبابٌ أَوْ قِتالٌ أَوْ هِجاءُ
فَنُحْكِمُ بالقوافي مَنْ هَجانا ... وَنَضْرِب حين تختلطُ الدِّماءُ
ألاَ أَبْلِغْ أبا سفيان عنّي[2] ... مُغَلْغلةً فقد بَرِح الخَفاءُ
بأنَّ سيوفَنا تركَتْكَ عَبْداً ... وعَبْدُ الدارِ سادَتُها الإماءُ
هَجَوْتَ محمَّداً فأجبتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ في ذاكَ الجَزاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ
هَجَوتَ مُبارَكاً بَرّاً حَنيفاً ... أَمين اللهِ شِيمَتُهُ الوَفاءُ
أَمَنْ يَهْجو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُه وَيَنْصُرُه سَواءُ
فَإنَّ أبي وَوَالِدَهُ وَعِرْضي ... لِعِرضِ محمَّدٍ مِنْكُم وِقاءُ
لِسَاني صارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْري لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ[3]

قال ابن هشام : قالها حسَّان قبل الفتح ، وقال : وبلغني عن الزهري (ابن سعد) أنَّه قال : لما رأى رسول الله ﷺ النِّساء يَلْطِمْنَ الخيل بالخُمُر ، تبسَّم إلى أبي بكر رضي الله عنه .

---

(1) مَعَدٌّ : حيٌّ من أحياء العرب ، أو اسم قبيلة ، والمَعَدُّ لُغَةً : عِرْقٌ في مَنْسِجِ الفرس ، (منتهى منبت العُرْف تحت القَرَبوس المقدَّم ، لسان العرب : ٣٧٧/٢) والمَعَدُّ : البطن ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٤٠٦ .

(2) المراد : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

(3) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٧ .

وقال أنس بن زنيم الدّيلي يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي لمّا جاء يستنصر عليهم :

أأنتَ الّذي تُهْدَى مَعَدٌّ بِأَمْرِهِ ... بَلِ اللهُ يَهْدِيهم وَقَالَ لكَ اشْهَدِ
وَمَا حَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فوقَ رَحْلِها[1] ... أبرَّ وَأوفى ذِمَّةً من محمّدِ
أحثَّ على خير وأسبغَ نائِلاً ... إذا راح كالسّيف الصقيل المهنّدِ
وأكسى البُرْد الخال قبل ابتذاله ... وَأعْطى لرأسِ السّابقِ المُتَجَرِّدِ[2]
تعلَّم رسولَ الله أنّك مُدْرِكي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليدِ
تعلم رسولَ الله أنّك قادِرٌ ... على كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِين ومُنْجِدِ[3]
تعلم بأن الركبَ ركبُ عُوَيمرٍ ... هُمُ الكاذبون المخلفو كُلِّ موعدِ
وَنَبَّوا رسولَ الله أني هَجَوتُهُ ... فلا حملتْ سَوْطي إليّ إذن يَدي
سوى أنّني قد قلت ويل أُمِّ فِتْيَةٍ ... أُصيبوا بِنَحْسٍ لا بِطَلْق وأسْعُدِ[4]
أصابَهُمُ مَنْ لم يكن لِدِمَائِهم ... كِفاءً فعزَّت عَبْرتي وَتبلُّدِي
فإنَّكَ قدْ أَخْفَرْتَ إنْ كنْتَ ساعياً ... بعبدِ بنِ عبد الله وابنةِ مَهْوِدِ

---

(١) الرَّحْلُ : مَرْكَبُ للبعير والناقة وجمعه أرْحُلُ ورِحال ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٢٧٤ .

(٢) الخال : برد من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب .

(٣) الصِّرم : الطائفة من البيوت .

(٤) الطلق : الأيام الطيبة .

ذؤيب وكلثوم وسَلْمى تتابعوا جميعاً فإلاّ تَدْمع العين أكمدِ
وسَلْمى وسَلْمى ليس حَيّ كمثله وَإخوته وهل ملوكٌ كأعْبُدِ
فإنّيَ لا ذنباً فتقتُ وَلاَ دَماً هَرقتُ تبيَّنْ عالِمَ الحقّ واقصدِ[1]



وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم الفتح :

نفى أهلَ الحَبلَّق[2] كُلُّ فَجٍّ مُزَينَةُ غدوةً وبنو خُفَافِ
ضربناهم بمكة يوم فتح النَّـ ـبي الخير بالبيض الخِفَافِ
صَبَحناهم بسبْع من سُلَيم وألف من بني عثمان وافِ
نَطا أكتافَهم ضرباً وطعناً ورَشْقاً بالمريَّشة اللّطافِ[3]
ترى بين الصُّفوف لها حَفيفاً كما انصاع الفُواق من الرصافِ[4]
فَرُحنا والجِيَادُ تجول فيهم بأرماحٍ مُقوَّمةِ الثقافِ[5]

---

(١) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٩ .

(٢) الحبلق : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس ، والحبلق : الغنم الصغار ، ولعله أراد أصحاب الغنم .

(٣) الرِّيْشُ : مصدر راش سهمَه يَريشُه رَيْشاً إذا ركَّب عليه الرِّيشَ ، وَرِشْتُ السهمَ : ألزقتُ عليه الريش ، فهو مَرِيش ، لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٠٩ .

(٤) الفُوقَ من السهم : موضع الوَتَر ، والجمع أفواق وفُوَق ، لسان العرب : ٣١٩/١٠ ، الرَّصف مصدر رَصَفْتُ السهم أَرْصُفُه إذا شَدَدْتُ عليه الرِّصافَ ، وهي عقبة تُشَدُّ على الرُّعْظِ . والرُّعظ مَدْخلُ سِنْخ النَّصْل ، لسان العرب : جـ ٧ ص ١٢٠ .

(٥) الثقاف : حديدة تكون مع القوَّاسِ والرَّمّاحِ يُقوِّمُ بها الشيء المُعْوَجَّ ، وتثقيف الرماح : تسويتها ، لسان العرب : جـ ٩ ص ٢٠ .

فـأُبنـا غـانمين بمـا اشتهينـا   وَآبُـوا نـادمين على الخِـلافِ
وَأعطينـا رسـولَ اللهِ مِنّـا   مـواثقَنـا على حسن التَّصـافِي
وقـد سمعـوا مقـالتنـا فهمُّـوا   غـداةَ الرَّوع[1] منـا بـٱنصرافِ

☆ ☆ ☆

وقال عبّاس بن مِرْداس السلمي في فتح مكّة :

منـا بمكـة يـومَ فتـح محمـد   ألف تسيل بـه البطـاحُ مسوَّمُ
نَصَرُوا الرسولَ وشَاهَدُوا آيـاتِـهِ[2]   وشعـارهم يـومَ اللِّقـاء مُقَـدَّمُ
في منزل ثبتَتْ بـه أقـدامهم   ضَنْك[3] كأنّ الهـامَ فيـه الحَنْتَمُ[4]
جرَّت سنـابكهـا بنجـد قَبْلهـا   حتى استقام لهـا الحجـازُ الأدهمُ[5]
الله مكّنـه لـه وأذلـه   حكم السُّيوف لنـا وَجدٌ مِـزْحَمُ[6]

---

(١) الرَّوع : الفزع ، قال ابن عباس : إذا شَمِط الإنسانُ في عارضيه الرَّوْعُ ، كأنّه أراد الإنذار بالموت ، لسان العرب : جـ ٨ ص ١٣٥ .

(٢) في ابن هشام : « شاهدوا أيّامه » .

(٣) الضَّنْكُ : الضيق من كل شيء ، الشدّة ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٤٦٢ .

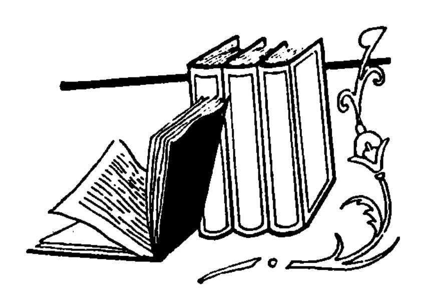
(٤) الهامَةُ الرأس ، والجمع هامّ ، وهذا هامَةُ اليوم أو غداً : أي يموت اليوم أو غداً ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٦٢٤ . والحنتم : الحنظل .

(٥) الدُّهْمَةُ : السَّواد ، والأَدْهَمُ : الأَسْود ، والعرب تقول : ملوك الخيل دُهْمُها ، وجيش دَهْمٌ أي كثير ، والدَّهْمُ : العدد الكثير ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٢١١ .

(٦) رجل مِزْحَمٌ : كثير الزّحام أو شديده ، ومنكب مِزْحَمٌ منه ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٢٦٢ .

عَود[1] الرياسةِ شامخٌ عِرْنينه[2] متطلعٌ ثُغَرَ المكارم خِضْرِمِ[3]

☆ ☆ ☆



(1) عَود : يريد الرجل المسن ، في لسان العرب : جـ ٣ ص ٣٢١ : العَوْد : الجمل المُسِنُّ وفيه بقية .

(2) عِرْنينُ كل شيء : أوَّله ، وعِرْنين الأنف : تحت مجتمع الحاجبين ، وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشَّمَمُ ، لسان العرب : جـ ١٣ ص ٢٨٢ .

(3) بئر خِضْرِمٌ : كثيرة الماء ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٨٤ ، وهو يريد هنا : الجواد المعطاء .

ما بعد الفتح الأعظم

* « إذا رَأَيْتُم مَسْجَداً أَوْ سَمِعْتُم مُؤَذِّناً فَلاَ تَقْتُلُوا أَحَداً » .

محمد رسول الله ﷺ .

١ - سريَّة خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَة من كنانة :

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح الأعظم داعياً ، وكان معه قبائل من العرب وسُلَيم بن منصور ، ومُدْلج بن مرّة ، فنزل بني جذيمة بن عامر[1] .

وفي الاكتفاء : « سرية خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمة[2] في ثلاثمئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار »[3] .

فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح فإن

(١) بنو جَذِيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة .

(٢) جَذِيمة على وزن سَفِينة .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ، هامش ص ١٤٣/أ .

الناس قد أسلموا ، فقال رجل من بني جذيمة اسمه جَحْدَم : ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد ! والله ما بعد وضع السلاح إلاّ الإسار ، وما بعد الإسار إلاّ ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحي أبداً[1] ، فقال له رجال من قومه : يا جحدم ، أتريد أن تسفك دماءنا ؟! إن الناس قد أسلموا ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم سلاحهم لقول خالد .

فلما وضعوا السلاح ، أمر بهم خالد فكُتِّفوا ثم عرضهم على السيف ، فقتل منهم ، فقال لهم جحدم لما رأى ما يصنع خالد : يا بني جذيمة ، ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم مما وقعتم فيه .

وانفلت منهم رجل ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال ﷺ : « اللّهم إني أبْرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ، وقال ﷺ : « هل أنكر عليه أحدٌ ؟ » ، فقال الرجل : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض رَبْعة فنهمه[2] خالد ، فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر طويل فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة .

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٤٣/أ ، طبقات ابن سعد : جـ ٢ ص ١٤٧ ، ابن هشام : جـ ٤ ص ٥٣ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٧٣ ، الطبري : جـ ٣ ص ٦٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ٣١٣ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٤٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٥ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٩١ .

(٢) نَهَمَهُ : زجره ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ٥٩٣ .

عَلِيٌّ يُصْلِحُ خَطَأَ خَالِد :

ثم دعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال لـه : « ياعلي ، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » .

فخرج علي رضي الله عنه حتى جاءهم ومعه مال قـد بعث بـه رسول الله ﷺ ، فـودَى لهم الـدمـاء ومـا أُصيب لهم من الأمـوال[1] ، حتى إنـه لَيَدِي مِيلَغَـةَ الكلب[2] ، حتى إذا لم يبقَ شيء من دم ولا مـال إلا ودَاه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم علي رضي الله عنـه حين فرغ منهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يُودَ لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أُعطيكم هذه البقيَّة من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون[3] .

ورجـع علي إلى رسـول الله ﷺ فـأخبره الخبر ، فقـال : « أَصبتَ وأحسنتَ » ، ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القِبْلَة قائماً شـاهراً يـديـه حتى إنه لَيُرى ما تحت منكبيه[4] يقول : « اللّهم إنِّي أبرأ إليـكَ ممـا صنع خالد بن الوليد » ، ثلاث مرات .

---

(١) استدل بعض العلماء من هذا في أنَّ خطأ الإمام يكون في بيت المال لا في ماله .

(٢) الميلَغُ والمِيلَغَةُ : الإنـاء الـذي يَلَغُ فيـه الكلب ، يعني أعطـاهم قِيمـةَ كلِّ مـاذهب لهم حتى قيمـةَ الميلغةَ ، لسان العرب : جـ ٨ ص ٤٦٠ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٣ ص ٥٩٢ .

(٤) المَنْكِبُ : مجتمع رأس الكتف والعضد ، لسـان العرب : جـ ١ ص ٧٧١ .

مَا الذِي صَنَعَهُ خَالِدٌ ؟

يقول خالد رضي الله عنه : ماقاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حُذافة السَّهمي ، وقال لي : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

إن في الذي جرى أمراً ، فلا يُعْقَل أن يقتلهم خالد وفي جيشه عدد كبير من الصَّحابة الكرام ، وهم يعرفون - كما يعرف خالد أيضاً - أنَّ قتل نفس بلا سبب مشروع أَمْرٌ تأباه تعاليم الإسلام .

أورد الإمام أحمد حديثاً رواه عن ابن عمر قال فيه : بعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى بني جَذِيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحْسِنُوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صَبَأْنا ، وخالد يأخذ بهم أَسْراً وقتلاً ، ودفع إلى كل رجل منا أسيراً ، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كلُّ رجلٍ منا أسيرَه ، فقال ابن عمر : والله لا أقتل أسيري ، ولا يقتل أحد من أصحابي أسيرَه ، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا صنيع خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « اللّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وقال عبد الرحمن بن عوف لخالد : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام . فقال خالد : إنما ثأرتَ بأبيك ، فقال عبد الرحمن بن عوف :

كـذبت ، قـد قتلتُ قـاتل أبِي[١] ، ولكنـك ثـأرت لِعَمِّـك الفـاكـه بن المغيرة ، حتى كان بينهما سوء تفاهم .

فبلغ ذلـك رسول الله ﷺ فقـال : « مهلاً يـا خـالـد ، دع عنـك أصحابي ، فوالله لو كان لك أُحُد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله مـا أدركتَ غدوة رجل من أصحابي[٢] ولا رَوْحته » .

إن مـا جرى بين عبـد الرحمن بن عـوف وخـالـد كلمـات مخـاصمـة لا تحسب على قائلها كما تحسب في غير هذه المواقف .

لقد أراد خالد بن الوليد نصرة الإسلام وأهله ، وإن كان قد أخطأ في أمر واعتقد أنهم ينتقصون الإسلام وأهله بقولهم : صَبَأْنا صبـأنـا ، ولم يفهم عنهم أنهم أسلموا ، فقتل طائفة منهم ، وأسر بقيتهم .. ومع هـذا لم

---

(١) خرج الفـاكـه بن المغيرة مع خـالـد بن الوليـد ، وعوف بن عبـد عـوف (أبـو عبـد الرحمن) ، وعفان بن أبي العاص ومعه ابنـه عثمان في تجـارة إلى اليمن ، وفي طريق عودتهم كان معهم مـال لرجـل من بني جـذيـة ، كان هلـك بـاليمن ، فحملـوه إلى ورثتـه فـادَّعـاه رجـل منهم يقـال خالد بن هشام ، ولقيهم بأرض بني جذيمة فطلبـه منهم قبل أن يصلوا إلى أهل الميِّت ، فـأبوا عليه ، فقاتلهم حتى قُتِل عوف والفـاكـه وأُخـذت أموالهما . وقتل عبـد الرحمن بن عوف قـاتل أبيه خالد بن هشام ، وعاد عفان ومعه ابنه عثمان إلى مكة ، فهمَّت قريش بغزو بني جذيـة ، فبعث بنو جـذيـة يعتـذرون إليهم بـأنّـه لم يكن عن مـلأ منهم ، وودَوا لهم القتيلَيْن وأمـوالهما ووضعوا الحرب بينهم .

(٢) أصحابـه ﷺ الأُوَل ، الـذين آمنوا بـه عنـدمـا كـذب النـاس ، الـذين على عواتقهم بنى ﷺ اللّبنات الأُوَلى في صرح الإسلام .

يعزلـه رسول الله ﷺ ، بـل استمر بـه أميراً ، وإن كان قـد تبرّأ منـه في صنيعه ذلك الذي وقع خطأ ، وودَى ما كان جنـاه خطـأ في دم أو مـال وزيادة حتى رضوا .

٢ ـ هَدْمُ ٱلعُزَّىٰ :

ثم بعث رسـول الله ﷺ خـالـد بن الـوليـد في ٢٥ رمضـان إلى العُزّى[١] ، ومعه ثلاثون فارساً ، وكانت في بيت بنخلة[٢] يعظّمه قريش وكنانة ومُضَر .

قـال عمرو بن لحي (الـذي أدخل الأصنـام إلى جـزيرة العرب) لقريش وكنـانـة ومُضَر : إن الربَّ يشتّي عنـد الَّلات ويصَيِّف عنـد العُزى ، فعظَّموها وبنوا لها بيتاً . وكان سَدَنَتُها وحُجَّابها من بني شيبان من بني سُلَيم حلفاء بني هاشم ، فلما سمع حاجبها السُّلَمي بمسير خالد بن

---

(١) العُزّى : شجرة وقيل صنم ، ولخبر هـدم العُزّى راجع : الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٤٣/ب ، السّيرة النبـويَّـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٩٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٦٥ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٧٦ ، ابن هشـام : جـ ٤ ص ٦٠ ، السّيرة النبـويَّـة والآثـار المحمـديَّـة : جـ ٢ ص ٣٤١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٤ ، البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ٣١٦ ، الطبقـات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٢) على الأرجح ، هي نخلـة محمود : مـوضـع بـالحجـاز قريب من مكـة ، لسـان العرب : جـ ٥ ص ٢٧٧ .

الوليد إليها ، عَلَّق سيفه عليها ، ثم اشتدَّ في الجبل الذي هو فيه وهو يقول :

أَيَا عُزُّ شُدّي شدَّةً لا شَوَى[1] لها   على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
أَيَا عُزُّ إنْ لم تَقْتُلِي المَرْءَ خالداً   فَبُوئي بإثمٍ عاجِلٍ أو تنَصَّري

فلما انتهى خالد إليها هدمها ، وقال :

يا عُزَّى كفرانك لا سبحانك   إنِّي رأيتُ اللهَ قد أهانك

٣ ـ هَدْمُ سُوَاع :

وأرسل ﷺ عمرو بن العاص إلى هدم سُوَاع ، وهي صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكَّة[2] ، يقول عمرو بن العاص : فانتهيت إلى سُوَاع وعنده السَّادِن[3] ، قال : ما تريد ؟ فقلت : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال السَّادن : لا تقدر على ذلك ، فقلت : لِمَ ؟ قال : يمنَعُك ، قلت : حتى الآن وأنت على الباطل ، ويحك ، وهل يَسْمَعُ أو

(١) الشَّوَى : لا تذر شيئاً ، أي لا تبقي على شيء .

(٢) في لسان العرب : جـ ٨ ص ١٧٠ : سُوَاع : صنم لهذيل .

(٣) السَّادِنُ : خادم الكعبة وبيتِ الأصنام ، والجمع السَّدَنَةُ ، والفرق بين السَّادِن والحاجب أن الحاجب يَحْجُبُ وإذنُه لغيره ، والسَّادِنُ يحجب وإذنه لنفسه ، لسان العرب : جـ ١٣ ص ٢٠٧ .

يُبْصِرُ حتى يمنعني ؟ قال عمرو : فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيه شيئاً ، ثم قلت للسَّادن : كيف رأيتَ ؟ فقال : أسلمت لله رب العالمين[1] .

٤ ـ هَدْمُ مَنَاة :

وأرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي[2] إلى مناة ، وهي صنم للأوس والخزرج ولهذيل وبني كعب وخزاعة وغسَّان ، وكانت بالمُشَلَّل[3] على ساحل البحر الأحمر ، يهبط منه إلى قديد .

خرج سعد بن زيد في عشرين فارساً ، فلما وصلها قال سادنها : ماذا تريد ؟

قال سعد بن زيد : أُريد هدم مناة .

السَّادن متهكِّماً : أنت وذاك !

فهدم سعد بن زيد مناة[4]

---

(١) الطبري : جـ ٣ ص ٦٦ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ١٤٦ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٢) سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي الأشهلي ، أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٥١ .

(٣) المُشَلَّلُ : جبل يهبط منه إلى قُدَيد من ناحية البحر (بين مكة والمدينة) ، معجم البلدان : جـ ٥ ص ١٣٦ .

(٤) وقيل الذي هدمها أبو سفيان بن حرب ، وقيل (حسب رأي ابن اسحق وابن هشام) إن الذي هدمها علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

عَتَّابُ بن أَسِيد[1] أميراً :

وَلَّى رسولُ الله ﷺ عَتَّابَ بنَ أَسِيد وعمره إحدى وعشرون سنة أمر مكَّة ، وأمره أن يصلّي بالناس ، وهو أول أمير صلّى بمكة بعد الفتح جماعة ، قال له رسول الله ﷺ : « يا عَتَّاب ، تَدْرِي على من استعملتك ؟! استعملتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم » ، « انطلق فقد استعملتك على أهل الله (قالها ثلاثاً) ، فاستوصِ بهم خيراً »[2] ، فكان رضي الله عنه شديداً على المريب ، ليِّناً على المؤمن .

وترك ﷺ معاذَ بن جبل رضي الله عنه معلّماً للناس السُّنن والفقه .

وجعل ﷺ لعَتَّاب بن أَسِيد في كل يوم درهماً ، فكان رضي الله عنه يقول : لا أشبع اللهُ بطناً جاع على درهم في كل يوم ، وخطب يوماً فقال : أيها الناس ، أجاع الله كبد من أجاع على درهم ، (أي له درهم) ، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد . وبقي في عمله إلى آخر خلافة الصِّدِّيق ، وتوفي في اليوم الذي توفي فيه الصِّدِّيق رضي الله عنه[3] .

---

(١) عَتّابُ بنُ أَسِيد بن أبي العِيص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَي بن كلاب بن مُرَّة القرشي الأموي ، أُسد الغابة : جـ ٣ ص ٥٥٦ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : جـ ٣ ص ١٢٠ و ١٢١ ، السِّيرة النبويَّة والآثار المحمديَّة : جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) وفي رأي : بقي أيام عمر ـ وهو ضعيف ـ وتوفي سنة إحدى وعشرين للهجرة .



* « إنَّ اللهَ حَرَّم مكَّـة يـوم خلـق السَّمـوات والأرض ، فهي حرام بحرام الله إلى يـوم القيـامـة ، لاتحلُّ لأحـد قبلي ولاتحـلُّ لأحـد بعدي ، ولم تحلل لي إلا ساعةً من الـدهر(١) ، لايُنَفَّر صيـدُهَـا ، ولايُعْضَـد(٢) شـوكُهَـا ، ولايُخْتَلى خلاؤهـا(٣) ، ولاتَحِلُّ لقطتهـا إلاَّ لمنشـد »(٤) ، فقـال العبـاس : إلاَّ الإذْخِر(٥) يـارسـول الله فـإنـه لابُـدَّ منـه للـدفن والبيـوت ! فسكت ﷺ ثم قـال : « إلاَّ الإذْخِر فإنَّه حلال »(٦) .

لقد بدأت الخطوة الأُولى نحو الفتح الأعظم ، عندما فشلت قريش

---

(١) لتطهيرها من الأصنام ، وماعُبِدَ من دون الله عز وجل .

(٢) عَضَدَ الشجرَ يَعْضِده عَضْداً : قطعه بالمِعْضَد ، يُعْضَدُ شوكُها : يُقطع ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٢٩٤ .

(٣) الخَلية من الإبل : المطلَقَة من عِقَال ، لسان العرب : جـ ١٤ ص ٢٤١ .

(٤) اللُّقْطةُ : اسم الشيء الذي تجده مُلْقىً فتأخذه ، لسان العرب : جـ ٧ ص ٣٩٢ ، ونَشَدَ الضَّالَّة ينشُدُها نِشْدَة ونِشْداناً طلبها وعرَّفها ، لسان العرب : جـ ٣ ص ٤٢١ .

(٥) الإذْخِرُ : حشيش طيب الريح . يسقف بها البيوت فوق الخشب ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٣٠٣ .

(٦) السِّيرة النبويَّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٥٧٧ .

ومن معها في غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة ، حيث ألقت قريش وحلفاؤها بالطاقات الممكنة كلّها ، فباؤوا بالفشل ، وقال ﷺ يومئذ : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[1] .

واقترب يوم الفتح الأعظم خطوة أُخرى بعد الحديبية ، حيث أقرّت قريش بعقد مُوَقَّع ، بأن رسول الله ﷺ ومن معه قوّة مستقلة متميّزة ، نِدٌّ لقريش زعيمة القبائل العربية ، وهذا يعني أن قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استئصاله ، عندما حشدت أضخم جمع في تاريخها أيام غزوة الأحزاب ، وأدركت قريش أن العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكة ذاتها قريباً ، أما قال خالد بن الوليد بعد الحديبية : لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ، ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحقٌّ على كل ذي لُبٍّ أن يتّبعه ، وقال عمرو بن العاص : واللهِ ليظهرنَّ محمد على قريش .. عرف هذا الحق العربُ والعجم .

وفي عمرة القضاء كانت الخطوة الثالثة ، قال رسول الله ﷺ للمسلمين المعتمرين : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ، ثم

---

(١) السّيرة الحلبيّة : جـ ٢ ص ٣٥١ ، السّيرة النبويّة لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٢١ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٦ .

أمرهم بالاضطباع » « اكشفوا عن المناكب ، واسعوا في الطواف » ، ليرى المشركون جَلَدهم وقوَّتهم ، فقال القرشيون فيما بينهم : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمّى وهنتهم ، إنهم لينفرون نفر الظبي . لقد أدهش المسلمون قريشاً بنظامهم ، بطاعتهم لنبيِّهم ، وبمحبتهم وتآلفهم ، وبقوّة أبدانهم .

إن هذا الاحتكاك المباشر ، الذي تمَّ من خلال عمرة القضاء ، خطوةٌ أُخرى نحو الفتح الأعظم ، وما جرى في عمرة القضاء ، وما جرى بعدها ، يظهر براعة رسول الله ﷺ في الحرب النفسية .

وبعد فتح خيبر ، تحطَّم حليف قريش القوي ، فحسدت قريش المسلمين ، وأغاظها النصر القريب ، وشعرت بوحدتها تجاه رسول الله ﷺ ومن معه ، فهي لم تستطع قهره وهزيمته واليهود بطاقاتهم البشريَّة والمادِّية معها ، فكيف بها اليوم وقد فتح المسلمون خيبر ؟!

لقد كان فتح خيبر خطوة هامة تجاه الفتح الأعظم .

وكانت اللفتة الدوليَّة التي حقَّقها رسول الله ﷺ قهراً معنوياً حقيقياً لقريش . لقد شعرت قريش عندما وجَّه رسول الله ﷺ رسائله إلى الملوك والأُمراء بهيبته ، وبقوّته ، وبعالميته ، وهي أعجز من أن تفعل جزءاً يسيراً مما فعله رسول الله ، أما خرج أبو سفيان بن حرب من عند هرقل وكأنَّه يهذي ، يضرب إحدى يديه على الأُخرى

ويقول : يا عباد الله ، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة وأصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في سلطانهم .

إن رسائله ﷺ إلى الملوك والأُمراء في جزيرة العرب وفي خارجها ، خطوة أُخرى نحو الفتح الأعظم ، عندما حطَّمت هذه اللفتة الدولية معنويات القرشيين ، وبخاصة زعيمها الذي لا يزاحم (أبو سفيان) ، فمن قريش أمام هرقل ودولته ، وتجاه كسرى وإيوانه ، وقُبَالة النجاشي وملكه ؟!

وكان في إسلام بعض أبنائها وفرسانها خطوة جديدة نحو الفتح الأعظم ، كإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة . لقد أسلم بعض أبنائها ، وتهيَّأ الآخرون قلبياً ونفسياً وحتى فكرياً لقبول الإسلام ، والقتال تحت راية رسول الله المظفَّرة ، فما عاد يخطر على قلب معظمهم أن المبادئ التي دعا إليها الإسلام لا تقوم على أساس عقلي وفكر صحيح سليم .

وشعرت قريش بقوة المسلمين المتنامية عندما رفض رسول الله ﷺ تمديد سريان مفعول الصلح بعد نقضه ، فرجع أبو سفيان إلى قريش خائباً فاشلاً ، فقالت قريش : قبَّحك الله من وافد قوم ! فما جئت بخير ، ما جئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنأمن . وبعد الأمان الممنوح لأهل مكة ، قال أبو سفيان بأعلى صوته : يا معشر قريش ،

هذا محمد قد جاءكم فيما لاقِبَلَ لكم به ، ويلكم لاتغرنكم هذه (يعني زوجه هند) ، من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم مالاقبل لكم به ، فتفرّق النـاسُ إلى دورهم ، وإلى المسجد ، بعدهـا دخل جيش الفتح الأعظم مكّـة من كل جهاتها ، مما جعل المقاومة مستحيلة ، فكان الفتح الأعظم .

☆ ☆ ☆

مَتَىٰ توحَّدت الرَّغباتُ والأَهدَافُ تحقَّقتِ الوحدة :

وفتـح مكّـة يعني انتقـال أُمّـة العرب (كما قلنـا في مقـدمـة هـذا الكتاب) :

من القبائليَّة والعشائريَّة ، إلى الأُمة الواحدة المتحرِّرة المحرَّرة .
ومن الجـاهليَّـة والوثنيَّـة ، إلى الإسلام والتـوحيـد المطلـق لله عـز وجل .
ومن التمزُّق والتفرُّق ، إلى الأُلفة والمحبَّة والتعاون والتَّراحم .
ومن العُزْلة والتبعيَّة ، إلى العالميَّة والإنسانيَّة .
ومن الخرافـات والمعـارف المحـدودة البسيطـة ، إلى البحث العلمي والحضارة المعطاءة .

لقـد صـاغ رسـول الله ﷺ أُمَّـة العرب صـوغـاً جـديـداً بمبـادئ الإيمـان ، فـأفلح العرب ولم يخفقوا ، وربحـوا ولم يخسروا ، وانتصروا ولم ينهزموا ، توحّـدوا ولم يتفرَّقوا ، عَـزُّوا ولم يُـذَلُّـوا ، وجعلهم بنـاة عـالم

سعيـد متراحم : ﴿ وَمَـا أَرْسَلْنَـاكَ إِلاَّ رَحْمَـةً للعَـالَمِين ﴾ [الأنبيـاء ٢١ / ١٠٧] .

فالأخ يتعامل مع أخيه في مقام (التعاون) .

أما الأُم مع ابنها ، فتعامله مقـام (الرحمـة) ، والمجتمع الـذي أراده الإسلام على مستـوى العـالم ، مجتمـع الرحمـة ، الـذي من بعض معـانيـه المحبَّـة ، الأَمن ، التَّـلاقي ، الطمأنينـة ، الأُلفـة . لا حقـد ، لا تعصُّب ، لا فسـاد ، لا جـور ، لا سعـادة على حسـاب شقـاء ، ولا فقراء يستغلهم أغنياء ، ولا تعالٍ في الأرض ولا فسادٌ .



فَتْـــحُ الحُصُـــون أَمْرٌ عَظِيمٌ
ولكن فَتْـحُ القُلـوبِ أَعظم :

وفي غـزوة الفتـح الأعظم تجلَّت جـوانب من عظمـــة رســول الله ﷺ ، ومنها :

١ ـ تحرُّكُه بسرِّيـة ، فبـاتت قريش في حيرة ، فهي لا تـدري أين ومتى سيكون القصاص .

٢ ـ وروعته ـ ﷺ ـ في الحرب النفسية ، عندمـا أمر جنـد الفتح

الأعظم بإيقاد النار ليلاً ، فبهرت هذه النيران أعين قريش وأدهشتها .

٣ً ـ كما انهار أبو سفيان عند خطم الجبل عندما استعرض كتائب جيش الفتح الأعظم « ياعباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها » ، ورأى أبو سفيان القبائل تعبر أمامه فيسأل : أبعدُ مامضى محمد ؟ ويجيب العباس : لو أتت الكتيبة التي محمد فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال ، وماليس لأحد به طاقة ، ويقول أبو سفيان : ومن له بهؤلاء طاقة ؟!

٤ً ـ وتجلَّت براعته السياسية عندما قال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، لقد جعل له شيئاً يرضي به حبَّه للفخر والظهور ، ولا سيما أَن أبا سفيان كان متبوعاً فأصبح تابعاً .

٥ً ـ يقظة الجيش واستعداداته المدروسة : سِرِّية عند انطلاقه من المدينة : « اللّهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلاّ بغتة ، اللّهم خذ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » ، وأخذ ﷺ بالطرق ، أوقف في كل طريق جماعة ليعرف من يمر فيها ، وقال : « لاتدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلاَّ رددتموه » ، فَعُمِّي على أهل مكة .

مع حراسة دقيقة ، وكلمة سِرٍّ يتعارفون بها ليلاً ، فلا عشوائية ، ولا فوضى ، ولا تواكل .

٦ً ـ ودخول مكة من جهاتها الأربع ، خطة تحسَّبت كُلَّ طارئ ،

مع توقع للقتال قد يكون احتماله واحداً إلى مئة ، مع أنه ﷺ أمر أُمراءه ألاَّ يُقَاتِلوا إلاَّ من قاتلهم .

٧ ـ عفوه ـ ﷺ ـ عندما قَدِر ، وهذا سموٌّ لا يضاهيه سمو ، لقد كان من حقٍّ رسول الله ﷺ قتل أبي سفيان ، فهو زعيم الكفر ، زعيم قريش التي آذت وقتلت أصحابه ، وهو قائد أُحُد والخندق ، ولكن رسول الله ﷺ أراد قتل كفره ، وقتل شِرْكِهِ وعناده .

وفي مكَّة حقَّق صورة إنسانية لا مثيل لها مطلقاً ، عندما قال ﷺ وهو المنتصر الفاتح ، ورقاب الأُلوف بين يديه : « اذهبوا فأَنتم الطلقاء » ، فكان الفتح الأكبر للنفوس والقلوب .

٨ ـ وكان حريصاً ﷺ على تأليف القلوب ، فما جاءه مشرك قد أَهدر دمه معتذراً إلا قبل عذره ، وما جاءه مسلم يستأمن لمشرك قد أهدر دمه إلاَّ قبل استئمانه .

٩ ـ والتواضع دليل النبوَّة ، فمن العظمة ـ لا شك ـ فتح الحصون ، ولكن الأعظم فتح القلوب ، وإضافة قوَّة الخَصْم إلى قوته ، بلا دماء ، وبدون تقتيل أو تدمير .

ودخل ﷺ مكة في غاية التواضع : (حتى إن عُثْنُونه ليكاد يمس واسطة الرحل) ، مردفاً في هذا الموكب العظيم ، أسامة بن زيد ، وهذا من مزيد تواضعه وكريم أخلاقه ﷺ .

١٠ ـ وفي تحطيم أصنام قريش أمام ناظريها ، من غير أن ينال مسلم واحد من جراء ذلك أدْنى أذىً ، دليل عملي يقيني على صدق النبوَّة في نظر قريش .

☆ ☆ ☆

وَبِفَتْحِ مَكَّةَ تَحَقَّقَتْ نُبُوءَاتٌ قَالَها رسَوْلُ اللهِ ﷺ :

* أثناء حفر الخندق ، وفي وقت شِدَّة وحصار ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليفرجن عنكم ما ترون من الشدَّة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع اللهُ إليَّ مفاتيح الكعبة » .

* وقبل الهجرة ، لما أراد ﷺ أن يدخل الكعبة ، أغلظ عليه عثمان بن طلحة ، ونال منه ، ولكن رسول الله ﷺ حَلِمَ وقال لعثمان : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت » ، فقال عثمان بن طلحة : قد هلكت قريش يومئذ وذلَّت ، فقال ﷺ : « بل عَمُرَت وعُزَّت يومئذ » .

لذلك ، فلما قال ﷺ يوم الفتح لعثمان مُذَكِّراً إياه بالموقف السابق ، قال عثمان : بلى ، أشهد أنك رسول الله .

* وقال ﷺ لأبي سفيان في رسالته التي أرسلها إليه بعد الخندق :

« وليأتيّن عليك يوم أكسر فيه اللاَّت والعُزّى وأسافاً ونائلـة وهُبَل حتى أُذكِّرك ذلك ياسفيه بني غالب » ، فطهَّر ﷺ مكة من الأوثان كما قـال قبلاً .

* وقبـل الفتـح ، وأيـام الحـديبيــة ، بشر رسـول الله ﷺ بفتـح مكَّة ، وأنه سيدخل البيت ويأخذ مفتاحه ، وقال بعـد توقيع الصلح : « فإنكم تأتونه وتطوفون فيه » ، وتحققت أيضاً بشرى الفتح .

* وكان ﷺ يقول لعمِّه العباس عندمـا كان يستـأذنـه بـالهجرة : « ياعم ، أقم مكانك الذي أنت فيه ، فإن الله عز وجل يختم بك الهجرة ، كما ختم بي النبوَّة » .

وكان كما قـال ﷺ ، فقـد كان العبــاس آخر المهــاجرين ، لأنــه استقبل رسـولَ الله ﷺ بـالأبـواء ، ولا علم لـه بخروج رسـول الله لفتـح مكة ، فرجع معه .

☆ ☆ ☆

وَفُتِحَتْ آفَاقٌ جَدِيدَة لأُمَّةِ ٱلعرب :

وبعد فتح مكَّة ، سقط لواء المعـارضـة من يـد قريش ، وليس في جزيرة العرب كلِّها قوَّة تستطيع تناوله لرفعه بعـدهـا ، فلا وثنيَّـة بعـد أن كسب رسـول الله ﷺ أعظم معـاركـه مـع الشرك ، فـانتهى عهـد

الـوثنيَّــة بعــد تحطيم ثـلاثمئــة وستين صنماً ، وأسلمت قريش الـزعيمــة المتبوعـة ، فما بـال القبـائـل التـابعـة ، التي وقفت حيرى تنتظر مصير المعركة ؟

ورفض الإســلامُ الــوثنيَّــةَ من أي عربي ، ولن يُقْبَــلَ منـــه إلا الإسلام ، وذلـك دليل على الوحـدة العربيـة بـوحـدة العقيـدة ، هـذه العقيـدة التي جعلت المهـاجرين الـذين سـاروا إلى الفتـح الأعظم ، في موقف يقـاتلون فيـه إخـوانهم وأبنـاءهم وآبـاءهم ، فـلا مكان لعصبيَّـة ، ولا مكان لقبائليَّـة أو عشـائريَّـة ، حيـاتهم عقيـدتهم ، فلا شح بـالنفس ولا في المال ، ولا الولد ولا العشيرة .

وستحاول ثقيف وهوازن (اللتان فهمتا أن الضربة القادمـة لهما إن لم يدخلوا في دين الله) تجريب حظِّهما ، دون اتعاظ بما جرى في مكة ، ودون أن تتذكَّرا أن عناد قريش راعية الكعبة حيث السِّدانة والسِّقايـة والرِّفادة ، صـاحبـة الرأي الأول الأخير ، والتي شكَّلت سـداً منيعـاً قـد انهـار دون أن تـذل ، فمــا أحـوجهم إلى اعتنـــاق الإسـلام حيث العـزة والمنعة ، حيث انتقال العرب إلى آفاق رحبة جديدة .

حيث الانتقال من نطاق « الدُّوَيْلَة » ، إلى نطاق الدولة العـالميـة العظمية .

☆ ☆ ☆

بُرُوكِلْمَان وسِيديُّو :

وعلى عادتنا في إيراد بعض الشُّبهات وتفنيدها ، نورد ما يلي :

* يقول كارل بروكلمان في كتابه : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٦٠ : « وكان القرشيون قد يئسوا ، منذ زمان ، من التغلُّب على النبيِّ مرَّة ثانية ، فهم يحصرون اهتمامهم بالمحافظة على صلح الحديبية حتى لا تتعرّض تجارتهم لأخطار جديدة ، بعد الذي مُنيت به من نكبات ، أما محمد - ﷺ - **فكان يترقَّب الفرص لِيُصَفِّي حسابه معهم ، جملة واحدة** ، واتفق أن **نشأت مُشَادَّة** بين احدى القبائل البدوية الداخلة في الإسلام ، وبين بعض مشايعي قريش ، اشترك فيها **على ما يقال** نَفَرٌ من أهل مكة ، وهكذا رأى محمد نفسه في حِلٍّ من صلح الحديبية بعد أن نقضته قريش » .

« وهكذا ألقت مكة بنفسها دونما صراع جَدّي ، على قدمي ابنها العظيم ، الذي آذته وأتباعه قبل ثماني سنوات ، واضطرتهم إلى الهجرة » .

وقال في ص ٦١ : « وعندما بلغ محمد الكعبة ، طاف بها سَبْعاً على راحلته ، لامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرّة ، **وبذلك ضم هذا الطقس الوثني إلى دينه** ، ثم إنه أمر بإزالة ما في الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها » .

وبعد أن اطلع القارئ على ماورد في صفحات هذا الكتاب ، وتكوَّنت عنده حصيلة علميَّة تاريخيَّة كافية لردِّ ما في قول بروكلمان من خطأ وبعد عن الحقيقة ، نقول على سبيل الذكرى :

١ ـ كان ﷺ يترقَّب الفرص لِيُصَفِّي حسابه معهم ، كلام يخالف الحقيقة والواقع ، بدليل فتح مكة ، ودخوله فاتحاً منتصراً ، فصفّى حسابه مع شركهم وأوثانهم ، أما هم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فأي تصفية حساب تمَّت معهم ؟!

٢ ـ أما قول بروكلمان : واتفق أن نشأت مشادَّة بين احدى القبائل البدويَّة الداخلة في الإسلام ، وبين بعض مشايعي قريش ، فكلمة « مشادَّة » . والتي تعني لغة المغالبة ، وتعني المقاومة ، وتستعمل اليوم لتدل على المشادّة الكلامية على الأغلب ، هذا المعنى مرفوض تاريخياً ، فاعتداء بكر على خزاعة وقتل من قتلوا حتى في الحرم ، أمر ثابت تاريخياً ، إنه اعتداء لا مشادّة .

٣ ـ وميَّع بروكلمان الموقف عندما قال : اشترك فيها على ما يقال نفر من أهل مكة ، وكأنه يشك ، فأضعف الرواية عندما قال : (على ما يقال) ، فجعل الحقيقة التاريخية الثابتة المتواترة في موقف الريب والشك ، وبالتالي في مرتبة الضَّعف والتردُّد .

٤ ـ أما قوله : وبذلك ضَمَّ (الحجر الأسود) هذا الطقس الوثني

إلى دينـه ، فهـو افتراء يخـالف الحقيقـة أيضـاً . فقريش والعرب كافَّـة مـا رأوا مطلقـاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بـل كانت لـه مكانـة محترمة لأنـه من بقـايـا بنـاء إبراهيم للكعبـة ، واعتماداً على هـذا ، فـإن الإسلام لم يقر (وثنيَّة) كانت في الجاهليَّة .

واستـلام الحجر الأسـود في الحـج يرجـع إلى اعتبـار رمـزي لا إلى تقديس الحجر ذاته ، فلما أعادت قريش بنـاء الكعبـة اختلفت بطونهـا على من يعيد الحجر إلى مكانـه ، وأقبل محمـد الأمين قبل البعثـة بخمس سنوات ، فدعوه لرجاحة عقله ، وحبِّهم لـه (فهو الأمين) ، ليفصل في الأمر ، فبسـط رداءه ، ووضع فيـه الحجر ، وجـاء من كل بطن برجـل حمـل من طرف الرِّداء حتى أوصلـه عليـه الصَّلاة والسَّلام إلى مـوضعـه فوضعه بيده الشريفة وأنهى مشكلة حرجة .

هـذا .. وتقبيلـه في الحـج ليس واجبـاً على النـاس ، ولا يشترط بالحاج تقبيله .

واليوم تقبيل علم البلاد في الشرق والغرب رمز لوحـدتهـا ، هل هو وثنيَّة ؟ أم هل هو عبادة لقماش العلم ؟

وتقبيل تراب الوطن لمن عاد إلى بلده بعـد طول غيـاب ، هل هو عبادة لترابها ؟ أم هو رمز لمحبتها ؟

* وقال لويس أميلي سِيديُّو في كتابه : تاريخ العرب العام ، ص٧١ بعد أن قال : نقض أهل مكة الهدنة بالهجوم على حلفائه من خزاعة ، « سار محمد الظافر إلى الكعبة فحطَّم جميع أصنامها ، **وأبطل جميع مناصب الوثنيَّة خَلاَ الحجابة والسِّقاية فقد أبقاهما** » .

« وما كان العمل ليقف عند ذلك الحدّ ، فقد امتنع بعض القبائل المعارضة في الحجاز عن اعتناق الإسلام ، **فكان قهر هذه القبائل أهم ما يفكِّر فيه محمد** » .

١ ـ الحجابة والسِّقاية عمل مستمر لخدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، فلا علاقة لهما بالوثنيَّة ، الوثنيَّة أصنام وأوثان وشرك حول الكعبة ، لا الكعبة التي هي رمز التوحيد منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت .

فخدمة الكعبة ، وسقاية الحجيج ليسا من الوثنيَّة مطلقاً .

٢ ـ أما (قهر) فمرفوض أيضاً على إطلاقه ، صحيح أن الإسلام ماقبل من العربي إلا التوحيد ونبذ الأصنام ، وهذا أمر طبيعي منطقي ، لوحدة الأُمَّة في وحدة عقيدتها ، ولرفض تدني التفكير البشري وقبوله الشرك والأصنام ، وللسموِّ به نحو مستوى رفيع من العقل والتفكير ، إلى التوحيد . وعبادة قيوم السموات والأرض .

وعلى كُلٍّ .. ماثبَّت رسول الله ﷺ في أُمَّة العرب إلا مـا يجب أن يُثَبَّت .

وماأزال إلا ما يجب أن يُزال .

لقد أبقى ما ينفع الناس وثبَّته .

وأزال الغُثاء .

فحقق ـ ﷺ ـ بذلك شرفاً لقومه خالداً في العالمين .





المحتوى

صفحة